مصطفى محمود



من أمريكا إلى الشاطئ الآخر

دار المعارف

أمريكا .. أمريكا

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الأربعاء – نيويورك ٢٦ أغسطس ١٩٨١ :

الأعمدة الأولى فى الصحف والتليفزيون تتحدث كلها عن اكتشاف ثلاث ذبابات من ذبابات الفاكهة فى حديقة خلفية فى أحد المنازل فى كاليفورنيا .

انقلبت أمريكا كلها رأسًا على عقب فور سماع الخبر .

سلاح الطيران يتحرك للقيام بعملية رش واسعة للمناطق المحيطة .

جيش من الخبراء فى الحشرات ينتقل فورًا إلى مسرح الحادثة .

معامل مجهزة للفحص البيولوجى تصل إلى الموقع محمولة بأسطول من الهليكوبتر .

أسئلة .. وأجوبة .. ومناقشات .. حول احتمال تلف جزء من المحصول .

ماذا عن الذبابات الثلاث التى وجدت ميتة ؟ .

توتر . . انتظار . . لهفة . . فضول ؟ . . ماذا حدث ؟

برقية من مركز المراقبة الفضائى يعلن عن إصلاح العطب فى كاميرات السفينة . . ويقول إن السفينة الآن تركت زحل بسلام وهى ترتحل فى الفضاء بسرعة خمسين ألف كيلومتر / ساعة فى طريقها إلى الكوكب العظيم أورانوس لتصل إليه بعد خمس سنوات . . ثم بعد ثلاث سنوات أخرى إلى نبتون .

مؤتمرات علمية لدراسة الشفرات اللاسلكية التى أرسلتها افوياجر من زحل .

عقول إلكترونية متخصصة تعيد تركيب الشفرة وتحولها إلى صور ملونة .

حلقات زحل المضيئة ليست عشرات بل مئات . وهى عبارة عن حصوات ثلجية معلقة . . آلاف الملايين من هذه الحصوات المختلفة الأحجام والأشكال تدور فى أحزمة متباعدة يمكن أن تتخللها السفينة الفضائية أثناء سيرها دون أن تصاب بسوء . . وليست كل هذه الحلقات مستديرة . . وإنما بعضها بيضاوى . . وبعضها يدور صاعدًا هابطًا فى مدار حلزونى . . وبعضها يلتف مع الحلقات المجاورة فى ضفائر . . وبعضها غير كامل وتتخلله الفجوات فى مناطق . . ألغاز .

وهناك خبر أعجب . . أحد أقمار زحل (هيبرون) يدور

بالمقلوب . . والتفسير مجهول . . بعض العلماء يقول إن هذا القمر تلقى ضربة على رأسه من قمر آخر منذ مائة مليون سنة قلبت وضعه فى الفضاء . . ومنذ هذا الحين وهو يدور فى هذا الوضع العجيب .

مناقشات حول سطح زحل . . وهل هو غازى أو سائل أو صلب . . وعن جو زحل وغازاته . . وعن درجة حرارة الكوكب ومجاله المغناطيسى .

علماء الفضاء أمام الكاميرات التليفزيونية فى مناقشات جادة يقطعها بين حين وآخر إعلان عن بنطلونات الجينز .

المناقشات مستمرة . . ومازال زحل لغزًا . . والمعلومات الجديدة حولت السؤال إلى ألف سؤال . .

الجمعة – نيويورك – ٢٨ أغسطس :

فى حديث تليفزيونى حول المرأة ومشاكلها . قالت المتحدثة فى صراحة عجيبة إن إحدى مشكلات المرأة حينما تتقدم فى السن أنها تزداد رغبة فى الجنس . وتصل رغبتها إلى الذروة بعد الستين . ولكن للأسف فى مثل تلك السن لا تجد المرأة من يقبل عليها من الرجال . فالزوج انتهى من زمان . وأقرانها فى السن من الرجال يفضلون بنات الـ ١٦ . ويجيب الرجل معلقاً على ملاحظتها أن أمثال هذه المشاكل لم تكن تثار فى الماضى . لأن العلاقات الزوجية لم تكن تتخطى الأربعين . فالزوج كان فى العادة يموت بالسكتة فى البورصة . أوكان يموت مقتولا فى حقول تكساس . أوكان يموت بالحمى أو الوباء أو الخمر الرديئة . وكان يترك فى عنق زوجته جيشاً من الأطفال يشغلها عن أى شىء آخر يمكن أن تفكر فيه . ولكن الآن – لسوء الحظ

وبفضل الطبيب وبوليصة التأمين وحبوب منع الحمل والأدوات الكهربائية التى تقوم بالكنس والغسل والطهو – نجد الزوجة فى حالة صحية جيدة وفراغ قاتل . تحملق فى المسلسلات الجنسية فى التليفزيون . والزوج تمتد حياته إلى أرذل العمر . والعلاقةالزوجية تتحول إلى شىء فاتر ممل لا يطاق . والزوجة تفتح على نفسها مشاكل لا حل لها .

السبت – نيويورك – ٢٩ أغسطس :

الشارع هنا يشبه شريط فيلم يدور بسرعة . . وبرغم الحرارة الشديدة والرطوبة العالية فالكل يجرى ، وإيقاع الحياة يهول . . وكل واحد ينهب الطريق ليلحق بشىء . . واليوم هنا يحتوى مجموع نشاط شهر بخطوتنا الهينة اللينة البطيئة . . والبنايات الجديدة تشق طريقها إلى السماء لتنطح السحاب فى أيام معدودة . . والميكنة والتكنولوجيا والكمبيوتر والأزرار توجه كل شىء . . والشركات الصناعية الخاصة تبنى المدارس وترصف الطرق وتنشئ المستشفيات وتبنى السكك الحديدية وتضع خطوط المترو على حسابها . . ولكنك بعد هذا تقف مذهولا فى « الأسانسير » الصاعد إلى الدور المائة فلا تجد الرقم ١٣ ، لأن صاحب ناطحة السحاب يتشاءم من رقم ١٣ ، لهذا ترك خانة الـ ١٣ خالية .

وتدهش كيف اجتمع كل هذا العلم مع الخرافة . وكيف اجتمع فى وقت واحد أحدث ما ابتكرته أذهان العصر من علوم الذرة والكهرباء والفضاء والإلكترونيات مع الشعوذة والسحر والأشباح والتنجيم والفنجان والكف .

ورلاندو – الأحد – ٣٠ أغسطس :

سهول فلوريدا الخضراء ذات الجو الدافئ والأمسيات الرطبة .. الخضرة على مدى البصر .. والسماء زرقاء صافية .. والنسيم كغلالة من حرير .

حضن الطبيعة رائع ..

تمنيت أن أنام فى هذا الحضن وأنسى كل شىء ..

هنا أجمل متحف حى لعالم البحار .. مبنى كامل منفرد لسمك القرش .. ومبنى آخر للحيتان .. ومبنى ثالث لسباع البحر وكلاب البحر وأفيال البحر .. مع تجهيزات كاملة للعروض السينمائية المجسمة .

شاهدت مسرحية ضاحكة لزواج أحد سباع البحر ..

المسرح شاطئ بحيرة صناعية والمدرب يحرك سباع البحر بمهارة مذهلة .

ومن قبل ذلك بساعات كنت فى السيرك أشاهد قرود الشمبانزى المدربة ، تركب البسكليتات وتجرى بقباقيب الانزلاق .. وكنت أرى السباع والنمور المفترسة تلعق خد مدربها فى خضوع .

وعجبت أشد العجب للإنسان الذى ساد مملكة الحيوان كلها وأخضعها لأمره وإشارته .. كيف لم يستطع أن يخضع الحيوان بداخله ؟؟

إنه لا شك يستطيع بدليل ما أرى أمامى ..

ولكنه هذه المرة لا يريد .. فقد اختار أن يترك حيوانه الخاص على سجيته ليلعب معه لعبة اللذة ..

اختار أن يتركه على حريته ليقاسمه هذه المصلحة العاجلة . والإنسان المكير يفعل ذلك بخبث ويدعى أنه ضعيف وأن حيوانيته غلبته .

ولكنه يكذب ليبرر لنفسه ما يختلس من لذات .

وما أجرأه على الكذب ذلك الذى مشى على القمر وارتحل إلى النجوم . وأخضع وحوش الغاب حينما يدعى أنه لا يستطيع أن يحكم الوحش بداخله ..

شيكاجو . الخميس ٣ سبتمبر ١٩٨١

شارع ميتشجان . أشعر أنى كعود كبريت إلى جوار هذه النباتات العملاقة من الصلب والزجاج . . ليس فقط فى عدد الأدوار التى طاولت السماء . . ولكن فى حجم الغرف . . تكاد الغرفة تكون بحجم طابق .

كل شىء ضخم .

أصغر شىء هم الناس الذين يهرولون كالنمل ، فى يد كل واحد حقيبة وفى جيبه مسدس .

وبرغم كثرة الجرائم وحوادث القتل والسرقة والخطف . . فإن النظرة سوف تختلف إذا أدخلنا فى الاعتبار أننا فى رقعة جغرافية تحتوى على خمسين ولاية كل ولاية تعادل فى مساحتها بلدًا عربيًّا ، ثم تكاد فى مجموعها تشتمل على أقصى درجات الاختلاف فى المناخ والجو

والمحصول والناس أسودهم وأبيضهم ، وتشتمل على كل الأديان والعقائد والملل والنحل والفقر والغنى . . وبرغم كل هذه الأخلاط المختلفة تقوم أمة مؤتلفة تتفاهم مع بعضها البعض بدون حرب .

فإذا كان لنا أن نحكم على الجريمة وانتشارها فى مجموع هذه الولايات الأمريكية فعلينا أن نقيسها بما يجرى من قتل فى مجموع البلاد العربية من باب قياس الشىء بمثله . . ولا شك أنها فى مجموعها أكثر أمنًا من مجموعتنا العربية . . فما يجرى من قتل هناك أقل بكثير مما يجرى من قتل هنا بين بلاد عربية بينها أخوة الدين واللغة .

(سوريا والعراق وإيران أمثلة قريبة) .

ولا شك أن هذه الولايات الأمريكية المختلفة فى الألوان والأديان واللغات واللهجات والعادات استطاعت أن تتفاهم فيما بينها بأكثر مما استطعنا نحن أن نتفاهم نحن أبناء اللغة الواحدة والدين الواحد .

ولا شك أن المسألة فى النهاية مسألة تقدم .

ولا أقصد بالتقدم حظنا من العلم والتكنولوجيا وحظهم . . وإنما أقصد ما هو أعمق . . أقصد القدرة على التفاهم وتحكيم العقل فى حسم الخلاف والقدرة على النظرة الموضوعية الهادئة دون انفعال والقدرة على الاستبصار والنظر فى العواقب وتغليب العقل على العاطفة والتخطيط على الارتجال والتفكير على الهتاف . . وتلك هى صفات

المجموعة المتحضرة . وحظنا من ذلك قليل وحظهم كبير .

وأكاد أقول إن أصدق تعريف للحضارة هو القدرة على التفاهم بين المختلفين . والقدرة على تجاوز التناقضات فى المواقف والآراء والأمزجة وتغليب الإنسانية والحكمة . . وإنما تأتى حكاية التقدم العلمى والتكنولوجى كنتيجة لهذه الصفة صفة تغليب الحكمة والفكر.

ولقد تقدموا فى العلم والتكنولوجيا بسبب هذه الصفة وليس العكس . ولكنى شديد التفاؤل . . وأقول لنفسى . . لقد اكتسبت أمريكا هذه الصفة بعد حروب تاريخية طويلة حارب فيها بعضهم بعضًا مثلنا . . وعبروا إلى شاطئ الأمان بعد أن خاضوا أنهار الدم .

ولعلنا نمر الآن مثلهم بهذه المرحلة التى مروا بها ونخوض مثلهم أنهار الدم.

إن التاريخ يعيد نفسه دائمًا ولا شىء يكتسب بدون ثمن — إنى متفائل .

وقد نستطيع أن نختصر التاريخ ونوفر الدم إذا استبصرنا العواقب واستفدنا من العبرة ، وواجهنا أنفسنا بالأمانة اللازمة . . ولم نتملق أنفسنا بالشعارات والملصقات القديمة المستهلكة أمثال بلاد الخواجات بلاد الكفر . . الحضارة الأوربية أفلست . . ليس عندهم سوى الانحلال والمخدرات .

بمثل هذا الكلام نخدر أنفسنا وننسى أنهم مشوا على القمر وفجروا الذرة ، وزرعوا الأجنة فى الأنابيب وعبروا الفضاء . . وماكانت هذه الناطحات التى تنطح السحاب إلا رمزًا لهذه الروح الإيجابية التى تعشق اقتحام المخاطر .

إن هذه الروح التى حاولت أن تناطح السماء هى نفسها التى عبرت الفضاء . وهى نفسها التى حاولت أن تثقب الأرض لتنقب عن البترول . وهى نفسها التى حفرت المنجم . وهى نفسها التى غاصت فى البحر وغزت البر وفجرت الذرة وانطلقت إلى المريخ .

هذه الروح الناشطة المغامرة الناهضة بهمة للعلم والعمل والاكتشاف والتجديد هى الوجه الجديد بالإعجاب من الشخصية الأمريكية .

وإذا ذكر العنف فأمريكا ليست أول من يتصدر العالم فى العنف وإنما إيطاليا أولى بالذكر . . وهى عاصمة المافيا والعنف بحق . وأقول إيطاليا لأن إيطاليا بلد صغير ليس فيه خمسون ولاية . وليس فيه سود وبيض . وليس فيه تعدد أديان ولا تعددأجناس يفسر أنهار الدم التى تسيل فى الشوارع كل يوم . ويفسر القنابل التى تنفجر فى الكبير والصغير . . ولا تفسير للعنف هناك سوى العنف نفسه . العنف النفسى الذى يتصاعد فى النفوس على شكل جمعيات وتنظيمات

وأحزاب وألوية حمراء وسوداء ويمين ويسار . . وهو عنف بلا عائد .

عنف لا يقابله أى صورة من صور الصحة الاجتماعية .

وبالمثل ما يجرى فى لبنان . . وما يجرى فى أمريكا اللاتينية . . وما يجرى فى الدويلات الإفريقية الحديثة الاستقلال .

وإذا لاحظنا أن فى أمريكا أكبر تجمعات إسلامية . . وإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية ناشطة وفاعلة من خلال الندوات والمطبوعات والكتب .

وإذا ذكرنا أن الإنتاج الناشط فى الزراعة يعطى فائضًا من القمح يطعم أمريكا وروسيا معًا والإنتاج الصناعى المتطور يغطى العالم كله . . فإن الصورة الشائعة بأن أمريكا هى الجريمة والكفر والمخدرات . . هى أبعد ما تكون عن الحقيقة . . فأمريكا أيضًا هى العلم والعمل والفن والاختراع . . وأمريكا هى المناخ الحر الذى يرتع فيه الخير والشر معًا ، بل ينمو فيه أى شىء قابل للنمو . . فإذا بحثت عن المجرمين تجدهم وإذا بحثت عن أهل الخير والصلاح والدين تجدهم . . بل تجد أكثر من ذلك . . تجد جماعات من المتعصبين ومن دعاة التطهر الدينى ومن الغلاة المتطرفين من المسيحيين والمسلمين . . كما تجد الوجوديين والانحلاليين والرافضين . . كما تجد غرائب الملل والنحل من أمثال

دعاة التانترايوجا وأتباع الصمدى (يوجا هندى جديد يدعو إلى الاستمتاع) . . كما تجد رهبان العلم العاكفين على دراساتهم ومعاملهم . . كما تجد أهل الملذات العاكفين على لذاتهم .

لكن الجوانب الإيجابية مازالت غالبة على الجوانب السلبية فى الصورة العامة . . والأمريكى العادى إنسان ودود عائلى متفتح بسيط محب للخير . . وهو يفكر بطريقة دينية برغم الحياة المغرقة فى المادية التى يعيشها . ولكنه يقدس حريته الشخصية ويضعها فوق كل اعتبار . .

ولا ينافس النشاط الأمريكى إلا النشاط اليابانى . .

إنك ترى النشاط اليابانى فى شوارع نيويورك . . ترى طوابير السيارات اليابانية الفارهة تزحم المرور ويتسابق إلى شرائها الأمريكيون وترى اللغة اليابانية على المحلات والمكاتب . . وترى السواح اليابان . . وترى الوفود والخبراء . . والعلم والإنتاج اليابانى فى الإلكترونيات والساعات والكاميرات يزاحم الإنتاج الأمريكى فى الفترينات ويقدم الأحسن والأرخص .

وقد بدأت اليابان هذه النهضة من الصفر . . من دمار كامل . . وهذا يعطينا مثالاً على أن التقدم التكنولوجى ليس لغزًا . . وأن التخلف ليس قدرًا علينا . . وأن العمل والنشاط يستطيع أن يعبر بنا الفجوة فى لا زمان .

الاثنين ٧ سبتمبر سنة ١٩٨١ جراند كانيون:

جراند كانيون أو « الخور العظيم » هو فلق أرضي أو انشقاق بعمق سبعة آلاف قدم ، وعرض عشرة أميال . وبطول عدة كيلومترات . حفرته مياه نهر الكلورادو وفعل الزلازل وتفجرات البراكين منذ أكثر من ألفي مليون سنة . . وهو مسرح بكر لفعل الطبيعة وعوامل النحات والتعرية والتآكل ، تحتفظ به أمريكا على بكارته ليكون متحفاً جيوليوجيًّا يقصده السواح من كل أنحاء الأرض . . . وعدسات الكاميرا لا تستطيع أن تحيط به فى صورة واحدة ولا فى عدة صور ، وكذلك العين البشرية إذا نظرت من زاوية واحدة . . ولابد أن تصعد فى طائرة لترى من الجو هذا الأثر العجيب لتشعر بضخامته .

وفى عمق الخور تعيش بعض قبائل الهنود الحمر فى أكواخ ولا تبرح مكانها برغم قسوةظروف الحياة وتعاقب الحر والبرد والزمهرير .

وإذا خاطبت الواحد منهم يقول لك إنه يشعرأنه لو بارح المكان سيفقد روحه . . وهى كلمات بسيطة ولكنها تعنى الكثير .

وإذا أمكن أن يكون للمكان روح ففى هذا الخور بالفعل . حيث تشعر ببصمات ألفى مليون عام فى لقطة واحدة فيما يشبه الصدمة التى يقف لها شعر الرأس . . وكأنما تحول الزمن إلى عمل رائع من أعمال النحت المذهل .

وتصفع وجهك الرياح الباردة الثلجية فتفيق لتعود إلى حيث يقف السائق ليأخذك إلى القرن العشرين . ثم إلى المستقبل الذى لا يعلم أحد كيف يكون .

الثلاثاء ٨ سبتمبر سنة ١٩٨١ لاس فيجاس:

عاصمة القمار الثانية فى العالم ... ديانتها الدولار . وآلهتها الخمر والنساء وبول انكا والديسكو.

منذ أن تضع قدمك فى المطار تسمع جلجلة النقود فى ماكينات الحظ الإلكترونية .. العب واكسب ..

وفى الكازينات الضخمة حول موائد الروليت والباكاراه تجرى عدة ملايين كل ساعة زمان بين الأيدى المرتعشة . وتنعقد حلقات الدخان وتلمع الماسات والسوليترات فى الأصابع وعلى الصدور العارية ، وتبرق العيون فى تلهف فى انتظار اللحظة التى تقف فيها عجلة الروليت .

وتسأل نفسك أى لذة يشعر بها ذلك الرجل الذى يلقى بكل ما يملك على المائدة .

لا .. إنه ليس مجرد المكسب . فإنه يستطيع أن يكسب بالعمل أكثر .. وسوف يستمر يقامر حتى لو استمر يخسر .

إن اللذة ليست النقود .

ولكن اللذة هى مباشرة الحظ والمكتوب والمغيب .

اللذة هى مصاولة القدر .

والوجه المحجوب من الكارت هو القدر .

واللذة هى تلك الرجفة التى تهز كيان المقامر لحظة أن يمد يده ليكشف الكارت .. فهو ليس مجرد كارت .. ولكنه القدر بعينه .

وهو فى حالة مباشرة مستمرة للقدر .

وهو يتصور أنه يستطيع أن يملك قدره .

وهذا الوهم هو اللذة القاهرة التى تستبد بالمقامر حتى تقضى عليه .

وهى لذة أشد قهرًا واستبدادًا من لذة الجنس والمخدر .

وهى تنمو بالمزاولة حتى تصبح عادة لا فكاك منها إلا بالموت أو الانتحار . والنصيحة الوحيدة أن تغلق الباب الذى يدخل منه الريح .

لا تضع قدمك فى لاس فيجاس إذا أردت السلامة . فالمسألة تبدأ عادة بربع دولار .

لوس أنجلوس – الأربعاء ٩ سبتمبر ١٩٨١ :

كاليفورنيا المبهجة .. الشاطئ الآخر من القارة على مياه الباسيفيك عند أقصى الغرب حيث منتصف الليل هناك هو رابعة النهار هنا فى القاهرة .

على بعد كيلو مترات قليلة بلاج ميامى . وعلى مسافة دقائق عالم الخيال فى ديزنى لاند . حيث قصص ألف ليلة . وسندريلا وحواديت الجن والسحرة . تراها مصورة مجسدة فى عالم من الدمى الإلكترونية البديعة .

الحر شديد .. والرطوبة عالية .. وجوه من كل الجنسيات تملأ الشوارع والحدائق . سود وبيض وحمر وصفر .. عبق مختلط من كل أنواع البارفان يداعب الخياشيم مع صوت أغانى الديسكو الذى يتصاعد من عربات السندويتش .

اليوم ويك إند . الأغانى كلها تتحدث عن الحب أفيشات الأفلام كلها حب .

أدرت مؤشر الترانزستور الصغير فسمعت صوت الحب على جميع المحطات .. وسمعته فى الإعلانات .

تمددت على الحشيش ونظرت فى استرخاء إلى كل شىء .

سألت نفسى ماذا أريد .. هل أطلب الحب . أنا الآخر .

لقد وجدت الحب .. كنت دائمًا أجده . ولكنى لم أجد الرحمة . والذى يحب لا يرحم .

الحب بما فيه من رغبة وشهوة وامتلاك لا يرحم .

ثم هو بعد كل ذلك لا يدوم .. وتلك غاية القسوة .

وفى المدن الكبيرة المزدحمة التى تعج بالملايين يتبادل الناس الحب والمصالح والمنافع . ولكن لا أحد يرحم أحدًا .

فى هذا العالم المادى الذى يتدافع بالاكتاف والمناكب فى سبيل اللقمة لا وقت للرحمة .. ليس هذا فقط حال نيويورك أو شيكاجو . بل هو أيضًا الحال فى القاهرة ولندن وباريس وروما وكل المدن الكبرى .. وكل الحضارة المادية التى نعيشها .

ولكن المشكلة تزداد حدة كلما ازداد التقدم المادى وكلما ازداد عدد الأزرار والكمبيوتر والأتوميش والليزر والتحكم الإلكترونى .

بقدر ما تغزو الآلة بقدر ما يتراجع العامل الإنسانى ويتضاءل الفرد ويتعاظم شأن المؤسسات والماكينات .

وهذا هو الوجه القاسى من الحياة المرفهة الحديثة .

الحياة تتدافع وتهرول . . ومعدلات التغير السريع تقفز كل يوم .

كل يوم يأتى ومعه اختراعات جديدة وأخطار جديدة واحتمالات مفزعة وإيقاع الحوادث يتتابع ملتهبًا لدرجة لا تستطيع معها أن تتنبأ ماذا يكون الغد . . وكل هذا يشكل ضغطًا عصبيًا على المواطن .

والنتيجة توتر نفسى عام .

والتوتر هو سمة الشارع والبيت فى أمريكا وأوربا والعالم المتمدن كله .

ولهذا يلجأ الأمريكى العادى إلى الكأس . . ويلجأ الشباب إلى المخدر والماريجوانا والكوكايين .

وفى إحصائية أخيرة بين جنود البحرية الأمريكيين يقول التقرير إن ٤٩,٥٪ أى حوالى نصف المجندين مدمنو خمور أو مخدرات أو الاثنتين – وبين طلبة المدارس أكثر من عشرين فى المائة يتعاطون الخمور أو المخدرات . والإحصائية مفزعة ويمكن أن تؤدى إلى مضاعفات هائلة فى المستقبل .

وإذا لم تلجأ الحكومة إلى سن قوانين صارمة ورادعة لوقف هذه

الموجة المدمرة من المخدرات . فالبنية الاجتماعية مهددة . والعصب الاجتماعى يتآكل شيئًا فشيئًا تحت هذا المظهر البراق الخلاب من التقدم .

وأحيانًا لابد أن نصادر الحرية لنحمى الحرية . ولكنهم هنا يفزعون من أى شىء يمس الحرية . ويقولون إن أمريكا هى الحرية . . وإن الحرية هى التى صنعت العلم والرخاء والتكنولوجيا والتقدم وهذا صحيح .

ولكن حرية صانع الكوكايين والهيروين سوف تهدم هذا كله . ولن يبقى لأحد حرية ، إنه الخير الذى يلد الشر .

إن الحرية أنجبت نسلا من الملائكة . ولكنها أنجبت أيضًا نسلا من الشياطين العظام . . إنها قد أنجبت البنائين الذين بنوا أمريكا ولكنها اليوم تنجب المخربين الذين يعملون على هدم هذا البنيان من القواعد .

وكما أنجب الخير الشر . . كذلك نرى أحيانًا أن الشر قد ينجب خيرًا . . فقد سقطت قنبلة هيروشيما الذرية على اليابان وكانت شرًا مطلقًا . . ولكنها ما لبثت أن أنجبت السلام . وحررت المهارة اليابانية من اقتصاد الحرب المنهك . وأطلقت طاقات التحدى والإبداع . وفى سنوات قليلة تحولت الأمة اليابانية الفقيرة المغلوبة فأصبحت سيدة الأمم

فى الإنتاج والاقتصاد والثراء . ودخلت الصناعة اليابانية على أمريكا عقر دارها .

وتلك مهزلة الأضداد التى تلد بعضها بعضًا .

ومن يقرأ التاريخ لا يدخل اليأس إلى قلبه أبدًا وسوف يرى الدنيا أياماً يداولها الله بين الناس الأغنياء يصبحون فقراء . والفقراء ينقلبون أغنياء . وضعفاء الأمس أقوياء اليوم وحكام الأمس مشردو اليوم . والقضاة متهمون . والغالبون مغلوبون . والفلك دوّار والحياة لا تقف . والحوادث لا تكف عن الجريان . والناس يتبادلون الكراسى ، ولا حزن يستمر . . ولا فرح يدوم .

ترى هل يعلم قضاة أمريكا هذه الطبيعة الجدلية للحوادث ؛ لو علموها حقًّا لعلقوا صناع الكوكايين والهيروين على أعواد المشانق ولضربوا بالحرية عرض الحائط .

كاب كانفرال . . الجمعة ١١ سبتمبر ١٩٨١ :

منصة إطلاق الصواريخ إلى القمر والكواكب .

المكوك الفضائى جاثم فى مكانه على المنصة فى انتظار أمر الإطلاق بعد أيام .

١٧ مليون رطل وزن المكوك والزاحفة الحديدية التى حملته إلى منصة الإطلاق .

ووزن الزاحفة وحدها ٦ ملايين رطل .

ووزن المكوك ١١ مليون رطل . . أشبه بعمارة متعددة الأدوار تقذف إلى الفضاء الخارجى فى دقائق . . لتندفع بعد ذلك بسرعة ٢٢ ألف كيلومتر / ساعة .

عمل من أعمال العملقة البشرية . .

وقفت أتأمل هذا المارد الإلكترونى المعتقل بكلابات من حديد . .

والذى ينتظر لحظة الانفلات من قبضة الجاذبية .

وقلت لنفسى . . هذا هو شرف أمريكا الحقيقى .

العلم والتكنولوجيا والمال والصناعة .

وروح المغامرة والاندفاع الإيجابى نحو الجديد .

والرغبة فى اكتشاف المجهول .

وتذكرت ماكان يتصايح به البعض عند هبوط أول إنسان على أرض القمر .

أما كان الأولى أن تنفق هذه الألوف من ملايين الدولارات على البطون الجائعة التى لا تجد لقمة الخبز .

وكانت مثل هذه التعليقات تتردد فى أمريكا ذاتها .

وكانت المظاهرات تجوب الشوارع تطالب بالكف عن الإنفاق على هذا الترف العلمى .

ولكنه لم يكن ترفًا . بل كان أشرف ما انفرد به الإنسان على كل الخلائق . . الرغبة فى اكتشاف المجهول . بل كان الروح ذاتها الطامحة نحو المعرفة .

أما ألوف الملايين من الدولارات فنساء العالم ينفقن أضعافها كل عام على العطور وأدوات الزينة ، وأحمر الشفاه وطلاء الأظافر . . ولا أحد يعترض .

ونظرت إلى المارد المكبل أمامى فى انتظار لحظة الانفلات من قيوده . . وقلت فى نفسى . . لا . . إنه لم يكن ترفًا ما أنفق من مال . . ولو أنفق أضعافه فلن يكون ترفًا . . فقد بذل العلماء العظام أرواحهم من قبل فى سبيل خطوة واحدة نحو الحقيقة . . بل فى سبيل حرف واحد جديد يضاف إلى كتاب المعرفة . وليس بعد الروح شىء يبذل .

السبت ١٢ سبتمبر سنة ١٩٨١ فى الطائرة إلى واشنطن :

فوق السحاب على ارتفاع خمسين ألف قدم . أشاهد فيلما سينمائيًّا فى الطائرة .

الذى يعرف المرأة الأمريكية من الأفلام لا يعرفها مطلقًا .. فالأفلام الأمريكية تعطى فكرة مغلوطة عن النساء فى أمريكا .

إن النساء فى أمريكا لسن مارلين مونرو . . ولسن بطلات الإغراء اللائى نراهن يتفنن فى الغواية على الشاشة .

المرأة الأمريكية إنسانة جادة واقعية ، لها استقلال الرجل وحريته ، وهى تكسب حياتها بعرق جبينها مثله . . وهى تزامله فى كل مراحل الدراسة وتنافسه فى جميع أعماله .

والمرأة فى أمريكا أقوى شخصية من الرجل وأكثر منه صبرًا وتحملا ، وأبعد نظرًا وأصدق فراسة . . وتجدها فى مقاعد الرياسة فى

كثير من المناصب الحكومية والحرة وتجدها ناهضة بجميع الأعمال .

والمائة سنة القادمة فى أمريكا ستكون عصر المرأة وليس عصر الرجل . . وربما يكون هذا هو حال العالم أيضًا . . ألم نشهد مسز تاتشر فى إنجلترا . وماريا دى لورديس فى البرتغال . وسيمون فيل فى البرلمان الأوربى . وأنديرا غاندى فى الهند . وتيريزا حاملة لجائزة نوبل ؟

إن الركب يسير . ولكن الثمن ندفعه كلنا فادحًا . فالمرأة والرجل فى الشارع وفى المصنع والمكتب والشركة . . والأطفال فى دور الحضانة . . ولا يجد الرجل ولا تجد المرأة الوقت لتربى طفلها .

الروابط الأسرية تضعف . والطفل المحروم من الأمومة والأبوة يبدأ يفكر لنفسه منذ السنوات الأولى . . ويتعود أن يواجه كل شىء منفردًا . وهكذا تنمو الروح الفردية على حساب التماسك الاجتماعى والترابط الأسرى . ولا أدرى ماذا يمكن أن يكون الأثر لتفاقم هذه الروح بعد سنوات .

ما هو شكل المستقبل ؟ لا أدرى على وجه التفصيل . . ولكن لن يكون الأثر الحضارى إيجابيًّا بل سلبيًّا . وتفكك الأسرة مثل تفكك الذرة يطلق أشعة وطاقة فى البداية . . ثم بعد ذلك يكون الفناء .

والمجتمع الأمريكى بحيويته يحاول أن يعوض هذا التفكك الأسرى عن طريق مؤسسات الضمان الاجتماعى والجماعات الخيرية التى تتولى

الصدقة والإحسان وحضانة الأطفال وتربية الأيتام . وعن طريق البرامج الدينية المتطورة والتوعية الدينية التى تخصص لها ساعات طويلة من البث التليفزيونى .

والجماعات الدينية طرف آخر له صوت وضغط على الرأى العام الأمريكى من خلال المطبوعات والمنشورات والندوات الإذاعية والتليفزيونية .

والأمريكى العادى يستجيب لدافع الخير وللحوافز الدينية برغم الحياة المادية التى يعيشها .

ولكن هل يستطيع هذا النشاط الاجتماعى والدينى أن يعالج التفكك الأسرى الموجود ؟ هذا سؤال لن يجيب عنه إلا المستقبل .

لقد رأينا مظاهرات نسائية فى ألمانيا تطالب بترك العمل والعودة إلى البيت .. وسمعنا عن زوجات فى ألمانيا يشترطن على الزوج إعفاءهن من العمل للتفرغ للبيت .

هل هو وعى نسائى جديد سوف يغير اتجاه التاريخ ويعود بالمرأة من جديد إلى مملكتها الأولى أو هى مجرد صيحات .. وتقاليع ؟

أشك فى عودة المرأة إلى البيت بعد أن ذاقت طعم الحرية والاستقلال . وبعد أن تربعت على كراسى الحكم وجربت السلطة

ومانراه فى أمريكا نراه فى كل مكان من العالم المتمدن .

إن تيار الحرية العارم جرف المرأة إلى الشارع ولن يعود بها . ونحن مقبلون على عصر جديد هو عصر المرأة . وسوف تكون امرأة أخرى مختلفة عن أمهاتنا . ولن أتعجل الحوادث وسوف أترك اتايخ يكمل القصة .

الأحد ٢٠ سبتمبر – أثينا .. طريق العودة ..

فارق مائة سنة بين شكل المدنية فى بلد كأثينا . وشكل المدنية فى بلد كنيويورك .. وفارق مائتى سنة فى العلم والخبرة .. وفارق ألف سنة فى أجهزة القوة وعضلات التقدم .

وبعد قرن آخر من الزمان . إذا ظلت أفريقيا على حالها من التأخر ستصبح المسافة بينها وبين أمريكا كالمسافة بين الإنسان والقرد .

لقد أثبت العلم فى القرن الأخير أنه يستطيع أن يغير البيئة تمامًا . ويستطيع أن يقلب موازين القوى . ويستطيع أن يحدث ثورة فى الإنتاج ويستطيع أن يقود ويغير . وليس أمام أى بلد طموح يحاول أن يلحق بركب العصر سوى أن يركب قطار العلم فورًا ودون تأجيل .

لكن العلم وحده لن يكفى .. بل هناك شىء آخر هام .. هو الحرية . فالحرية سوف تخلق المناخ لإفراز المواهب . وسوف تعطى

الفرصة لتصحيح الأخطاء . وحظ أمريكا من الحرية كبير .. بل هو أكبر من اللازم . فصانع الخير يجد فرصة . وصانع الكوكايين يجد فرصة . والقاتل يجد فرصة . واللص يجد عشر فرص . والشواذ جنسيًا يجدون مائة فرصة . وتلك هى الثغرة الخطرة فى نظام الحرية الأمريكى .. وهم يقولون فى أمريكا إن الحرية لا تتجزأ ..

وأنا لا أطالب بتجزئة الحرية .. ولكنى أطالب بصرامة العقاب .. إنهم فى روسيا يقطعون رقبة السارق . وفى السعودية يقطعون يده .. وفى أمريكا يعرضونه على الطبيب النفسى الذى يكتب تقريرًا بأنه مسكين . وبأنه لم يتلق الحنان الكافى وأن أمه تزوجت غير أبيه . وأبوه تزوج غير أمه . ويقترح إعطاءه معونة وشكولاتة وعلاجًا نفسيًا .

ولا أفهم أى معنى لهذا التدليل سوى حماية الفساد وتشجيعه .. ولا أفهم من أولى بالعطف . صانع الكوكايين الذى يدمر جيلا بأسره أم الألوف من ضحاياه من أطفال وأولاد المدارس ؟

إن الحرية حينما تعنى قلب موازين القيم سوف تلغى مبرر وجودها نفسه .. فإن حرية صانع الكوكايين معناها استعباد الجيل كله فى إغلال المخدر .. وحرية الشواذ جنسيًا معناها فتح الباب على مصراعيه لإفساد الفطرة الإنسانية كلها .

أعتقد أنه لابد من نظرة تشريعية جديدة فى نظم العقاب

الأمريكية . . فإن العلم والحرية لا يكفيان لضمان التقدم . بل هناك شرط ثالث لابد من توفره وهو القيم . والقيم هى دعائم البنيان وبدونها ينهدم أى بنيان مهما بلغ من القوة .

ولن تسلم القيم بدون حراس يسهرون عليها . لقد طرد الرئيس ريجان ١٧ ألف مراقب جوى بجرة قلم . وهو حزم ملحوظ وسرعة فى المبادرة .

ولكن هناك ظواهر متعددة فى المجتمع الأمريكى أولى بهذا الحزم وأولى بهذه الصرامة . مجرد ملاحظة من مسافر عابر .

وأفكار من الشاطئ الآخر

الشيوعيون الجدد . . وكيف يعملون ؟

فى الماضى . . فى الأربعينيات . . كان الشيوعى بطلا . . كان يشعر أنه يكافح من أجل قضية مقدسة . . كان يقول صادقًا أو واهمًا . . نحن نقاتل ونموت ونسجن فى سبيل الجياع والمطحونين . . نحن حرب على الاستعمار فى كل مكان . . نحن ثورة على الظلم والقهر والاستغلال .

وكان الشباب الثائر ينظر إلى موسكو الكعبة . . وإلى لينين رسول الإنسانية . . وإلى ماركس صاحب إنجيل البروليتاريا . .

وكان الماركسى راهب عصره وقديس زمانه ، يمشى فى هالة من الاحترام ، ويموت شهيدًا تكتب فيه الأشعار والمراثى ، وتغنى فيه الملاحم وتنسج حوله أساطير المجد والبطولة . وكانت الاشتراكية أغنية ، والمادية الجدلية لاهوتًا ، وجيفارا مسيح الوقت .

ثم دار الزمن دورته وتعرت المبادئ وافتضحت الأفكار وتمزقت أقنعة النظريات . . وإذا بالشيوعى الفيتنامى يقتل الشيوعى الكمبودى . . وروسيا تقاتل الصين . . والصين تغازل أمريكا . . والاشتراكية تستبدل ظلمًا طبقيًا بظلم طبقى آخر أكثر شراسة . وتزيح طاغوت أفراد لتقيم طاغوت دولة ، وتسجن مجتمعات بأسرها وراء القضبان .

وبالأمس القريب كان حليف إسرائيل فى العدوان الثلاثى على مصر فرنسا الاشتراكية فى عهد موليه الاشتراكى .

واليوم نرى روسيا تحتل أفغانستان ليس احتلالا عقائديًا وليس احتلالا اقتصاديًا وإنما احتلال عسكرى . واستعمار سافر وقهر لشعب أعزل بالحديد والنار والقوة الغاشمة .

لم تعد للشيوعى مثاليات يتغنى بها ، ولم تترك له روسيا شرفًا يقاتل من أجله ، ولم تبق له إلا عمالة سافرة لأبشع الأهداف . . للقهر والظلم والاستغلال . . الذى كان يدعى أمام الناس أنه يحاربه . .

لم يبق للشيوعيين إلا أن يكونوا عملاء استعمار لا أكثر . . وجواسيس على بلادهم . . وحربًا على أهليهم وأوطانهم . ترى ماذا يقول جيفارا لو بعث حيًا وتلفت حوله ينظر فى وجوه رفاق الأمس كاسترو البلطجى ، ومونجستو السفاح ، وإلى المبدأ الذى تحول إلى قتل

وقطع طريق . وسرقة شعوب ونهب أوطان . . وماذا يقول عن الإخوة الأعداء الذين قتل بعضهم بعضًا فى عدن . . وماذا يقول عن الرفاق نور الدين ترافى وحفيظ الله أمين وبابراك الذين أعدم بعضهم بعضًا لحساب السادة فى الكرملين .

وماذا يقول عن متاهة الأكاذيب التى اعتنقها وروج لها واستشهد فى سبيلها ومات خادعًا مخدوعًا ، وماذا يقول عن أسطورة البطل الخرافى التى نسجوها حوله ، أراهن أنه يموت من جديد غمًا وكمدًا وغيظًا . . إن الكل الآن يعيد النظر والعالم يعيد حساباته .

من كانت لهم الصدارة أصبحوا فى آخر الصفوف . ومن كان لهم المجد أصبحوا فى أقفاص الاتهام . . والمجنى عليهم أصبحوا جناة وقتلة . . والعسكر أصبحوا حرامية . . وكعبة موسكو أصبحت مغارة لصوص .

والشيوعيون الجدد مزقوا شعاراتهم ولافتاتهم وأنكروا هويتهم من الخزى . وبدءوا يستعيرون هويات أخرى وراحوا يعملون تحت رايات أخرى .

إن التيار السائد الآن هو التيار الدينى فليعمل الجميع تحت هذه الراية . الضرورة واستراتيجية المرحلة تحكم . تلك مبادئهم . .

ولقد سمعنا الإرهابى الإيرانى « فلاح الدين حبشى » يقول إن

حزب توده الشيوعى يعمل من داخل عباءة الخومينى . بل هم يعملون من تحت جلده . وفى سن الثمانين يصبح العجوز طفلا فى عقليته بسبب تصلب الشرايين . وما أسهل أن يصبح ألعوبة فى أيدى من يعرف كيف يقوده ويؤثر فيه .

وهم هنا فى الجامعة يعملون من وراء الشعارات الدينية ويدفعون بالشباب المتطرف الرافض إلى هوس دينى فى محاولة ذكية ماكرة للتخلص من النظام ومن الدين معًا . والوصول بالمجتمع إلى حالة من الفوضى تصبح فيها الشيوعية هى طوق النجاة الوحيد .

هؤلاء هم أصحاب اللحى الجدد الذين يرفعون المصاحف على أسنة المطرقة والسندان . وينادون بالشريعة ليقطعوا بها أيدى خصومهم ويصلون على محمد بظاهر ألسنتهم وعلى لينين بكوامن قلوبهم . ويدفعون أمامهم بقطعان من الشباب الساذج ويقولون له . . اقتل . احرق – خرب . . دمر . . فى سبيل الله . . ضع القنابل فى السينمات والمسارح والبنوك والمؤسسات . . ارفع راية العصيان فى كل مكان . . فتلك دولة الفسق وأنت المهدى المنتظر .

وما أكثر من يندفع من الشباب ليموتوا فى معركة ليست معركتهم فليكن الشباب على حذر من هذه اللغة المزدوجة . وليتذكر أن الدين

حب وسماحة وتقوى وعمل صالح وبناء وتفان فى الخير وتعاون على البر .

وليتذكر أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لم يكن سفاحًا ولا قاتلا ولا مخربًا . ولم يكن يشعل الحرائق . ولم يكن يغتال الآمنين . بل كان يدًا خضراء ولسان صدق وكلمة محبة .

أما هؤلاء الرافضون فهم الماركسيون الجدد فى لباسهم التنكرى الجديد بعد أن تعرت مبادئهم وظهر فسادها حتى النخاع .

المؤامرة . .

ضحك الشيوعيون على أنفسهم وعلينا حينما ظنوا أن الشيوعية حضارة جديدة تقوم على أنقاض الحضارة الأوربية الرأسمالية التى تصدع بنيانها . . وصوروا لأنفسهم ولنا أنهم أنبياء ورسل هذه الحضارة الجديدة إلى العالم . . والحقيقة أنهم يبيعون لنا نفس البضاعة القديمة تحت اسم جديد . . فما الرأسمالية والشيوعية إلا وجهان لعملة واحدة هى الحضارة المادية التى أنجبتها الوثنية الصناعية فى بداية القرن التاسع عشر .

إن الوثنية الصناعية هى الحضارة الأم التى أنجبت النظام الرأسمالى كشكل اقتصادى . ثم النظام الشيوعى كشكل اقتصادى آخر ليؤدى نفس الهدف . وليخدم نفس الغايات . وليخلق نفس العقلية عقلية إنسان كل همه واهتمامه إشباع حاجات اللحظة (فيما يسمونه بأسطورة

الرخاء فى النظامين) والسيطرة على البيئة وسيادة الكون وتغيير التاريخ (شعارات يتشدق بها الاثنان) وامتلاك المال والأرض والمصنع فى الرأسمالية . . وامتلاك الرقاب الذى يمارسه الحزب الشيوعى (نفس الشيء وأسوأ) . وأسطورة القوة المادية (ممثلة فى الغزو العسكرى الرأسمالى وفى الغزو المذهبى الشيوعى الذى أسفر عن وجهه أخيراً فتحول إلى استعمار عسكرى وغزو حربى صريح فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وأفغانستان والسلفادور) .

بل إن نفس هذه الوثنية المادية قد أنجبت الصليبية والصهيونية لتقوم بنفس الدور تحت ستار الدين . . الاستعمار العسكرى والغزو الفكرى والسيطرة بالقوة على مقدرات وثروات الآخرين .

بل إنها هى التى تمول وتشجع وتصدر لنا حركات من نفس النوع ظاهرها دينى وحقيقتها سياسية وأهدافها انقلابية مثل التكفير والهجرة فى بلادنا ، وحركة المهدى المسلحة فى مكة وثورة الخومينى فى إيران (وقد خطط الخومينى لثورته وهو فى حضانة فرنسا ، ثم قام بها ونفذها تحت مظلة الحماية الأمريكية فى إيران ، إنها نفس لعبة الأمم التى تلهو بنا كما تلهو بقطع الشطرنج) وقد عادت هذه الأمم فضربت إيران بالعراق لتكسيح الاثنين .

ومن العجب أن نرى روسيا وأمريكا تعطيان السلاح للاثنين

وتحرصان على مد أجل الحرب بينهما كلما بدأت تفتر . نرى هذا بأعيننا ولا نفيق ولا نعتبر .

نحن أمام نمط فريد من المكر العالمى يحاول أن يمكر بنا حتى باستخدام شعاراتنا . شعارات الدين والإسلام . فيشجعنا عليها بعد تزييفها . فهذه الأنماط الجديدة من الإسلام الثورى هى نفس الشعارات الوثنية بعد إعادة تعبئتها فى عبوات إسلامية . إنها نفس الشعارات الاشتراكية التى تحرض الطبقات على بعضها . وتتشدق بالرخاء وتثير أحلام السيطرة وتحرك العصبيات . وتهيج الطائفية . وتولد الحزازات بين الملل . ولا تأخذ من الإسلام إلا الطقوس الشكلية والمظاهر .

إن جميع هذه الانحرافات هى نسخ متعددة مختلفة من أصل واحد . وإن تسمت أحيانًا بالإسلام . وأحيانًا بالصليبية وأحيانًا بالصهيونية . وأحيانًا بالرأسمالية . وأحيانًا بالشيوعية . إنها هى هى الوثنية الصناعية المادية التى تحاول أن تجعل من الإنسان عبدًا للماكينات والمنتجات الترفيه . والفاترينة الاستهلاكية . عبدًا لأوهام السيطرة وأحلام القوة . أسيرًا لشهوات البطن والجنس وخادمًا لرغبات اللحظة . وقودًا للحروب . مشغولا بالتوافه والخسائس . متهالكًا

على جمع الحطام الفانى . مشتتًا بين الأوهام . ممزقًا بين العصبيات والخلافات حتى ينتهى عمره .

إنها جميعًا وجوه حضارة واحدة هى الحضارة الوثنية المادية . وهم قد اختاروا لنا سلفًا وأرادوا لنا وأرادوا بنا . وصنعوا لنا شعاراتنا الجاهزة . وصدروا هذه العبوات الفكرية والدينية المعلبة المزيفة . وخططوا لنا كل البدائل التى أرادونا أن نختارها . وفى النهاية طمسوا على أبصارنا بالإعلام الموجه والغزو الفكرى ومدفعية الكتب والصحف والإذاعات والتليفزيون لنظل فى دوامة لا نفيق على حقيقتنا أبدًا .

وفى نظرهم أنه لا يجب أن يخرج تفكيرنا واختيارنا عن قنوات مرسومة . فنحن إمّا أن نحذو حذوهم النعل بالنعل . فننقسم إلى شيوعى ورأسمالى ويمين ويسار ونتقاتل فيما بيننا تحت رايات الرجعية والتقدمية الكاذبة .. ونتلقى عنهم أولا بأول علومهم ومخترعاتهم ونبدأ من حرف الـ (ا) من حيث انتهوا هم إلى حرف الـ (ى) .. ونظل مقيدين إليهم فى عربة السبنسة وفى الأذيال . وإما أن نقبل البدائل المزيفة التى يروجونها بيننا باسم الحركات الإسلامية . والثورات الإسلامية . والجماعات الصليبية . ويُشجعون عليها بالمال والتأييد والمساندة السياسية . وما هى من الإسلام أو المسيحية فى شىء .. بل هى نفس الشعارات الوثنية بطلاء إسلامى أو مسيحى . وهدفها

النهائى تخريب نظمنا وعقولنا . واقتلاع الإسلام من جذوره . والإساءة إلى المسيحية فى جوهرها . وكلها محاولات لإبعادنا عن تيار الوعى الحقيق الذى تملك ينابيعه .

هى محاولات للقضاء على الحضارة الأخرى الوحيدة المنافسة .. وهى الحضارة الإيمانية العلمية .. التى هى روح الإسلام .. وروح جميع الأديان السماوية . والإنسان فى هذه الحضارة الإيمانية العلمية لا يستهدف إشباع الحاجات والرغبات والشهوات . وإنما على النقيض من ذلك يحاول أن يقمع شهواته وأن يحكم رغباته وأن يقتصد فى حاجاته .

إن الفاترينة الاستهلاكية ليست هدفه . وجمع الذهب ليس غايته . ومتاع اللحظة ليس خطته .. ولهذا فهو لا يحارب من أجل هذه الأشياء . ولا يضيع الوقت فى تحصيلها .

وهو يرى أن عمره طويل بطول الأبد . وأنه سوف يموت ليبعث . ولهذا فهو لا يتعجل اللذات . ولا يشغل قلبه بالأحقاد وإنما هو مهموم دائما بتربية نفسه . بالولاف بين متناقضاتها ومجاهدة رغباتها والصعود بها هونًا درجة بعد درجة إلى أعلى المعارف .

والانتصارات التى يحتفل بها هى انتصاراته على نفسه . وتحرره من عاداته وتخلصه من عبودياته . وخروجه من أسر الأنانية وانفلاته من

سجن العصبية والتقليد إلى هواء الحرية .. حيث لا خوف من أى شئ .. وحيث لا إله إلا الله .. لا ضار ولا نافع غيره ..

والإنسان لا ينظر لنفسه فى هذه الحضارة باعتباره حلقة ختامية نهائية للحوادث بحيث يحاول أن يستغرق نفسه بما يجمع وبما يملك وبما يحقق لنفسه فى الدنيا .. وإنما هو حلقة وسطى .. والدنيا بأسرها مرحلة تؤدى إلى مرحلة .. فهى مزرعة لحياة أخرى تتلوها .. وهى مجرد عبور من حال إلى حال .. وهى بروفة وديكور من القماش وعالم من الوهم وامتحان .. يعقبه عالم آخر من الحقائق .. والحياة كدح مستمر إلى الله لا ينتهى .. ونحن نمتلك أمامنا كل الزمن وكل الأبد وكل الخلود .. ولا داعى لأن نتعجل ونضيع أنفسنا فى لعبة السيطرة وأوهام القوة وهموم الرخاء والترف وإتخام البطون .. وإنما حسبنا كفافنا وقوت يومنا . وحسبنا ما يسترنا من ثياب فنحن على سفر . ونحن فى قطار . ونحن على كوبرى . فكيف نتوقف لنبنى على الكوبرى ناطحات سحاب .

ونحن بنسبنا الحقيق ننتسب إلى الله بحكم ما نفخ فينا من روحه وإليه مرجعنا ولا معنى لأى عصبية أو عرقية أو قومية .. ولا معنى لأن يقول كل واحد منا أنا .. فتلك جميعها انحرافات عن الطريق وسبل ملتوية جانبية تضيع علينا طاقاتنا وحياتنا .

ولن يحفظ علينا حياتنا وقوتنا وطاقتنا سوى أن ننتمى وننتسب من البداية إلى الله خالقنا ونمتثل لقانونه وشريعته ونلزم طريقه ونجعله همنا ومقصدنا .

وذلك هو الفكر التوحيدى الذى يجمع شمل النفس . وشمل جميع الأنفس ، وشمل جميع الأمم فى مسيرة واحدة مباركة سبيلها العلم والعمل ومكارم الأخلاق تقربًا إلى الله بارئ كل شىء . . وهى مسيرة لا تتعصب ولا ترفض ولا تخاصم ، وإنما تقبل وترحب بكل مكتسبات الإنسانية عبر تاريخها ، وتعمل على استثمارها وتنقيتها وتزكيتها لتقدمها كما أرادها الله نورانية صافية . . وهى مسيرة أبد . . ومسيرة خلود .

وتلك هى حضارة أخرى مختلفة تمامًا عن جميع الأشكال الموجودة للحضارة الوثنية الصناعية . . وهى ليست أبدًا ما نرى حولنا فى ثورات إسلامية . . أو حركات إسلامية حاقدة مسعورة . . أو جماعات صليبية تنشر الفرقة والعداوات الطائفية . . فتلك وغيرها من انقلابات شيوعية . . وجماعات اشتراكية . . هى بعض ما يخطط لنا . . وبعض ما يصنع لنا فى الخارج من أفكار معلبة . . ومؤتمرات محبوكة . . وهى جزء من خطط التعمية وطمس البصائر وإغراق المنطقة فى ضباب

التضليل وفى ضوضاء الدعايات والشعارات المتصلة . . حتى لا تفيق أبدًا على ينابيع النور التى فى أيديها . .

فهل نفيق على حقيقتنا وهل نمسك بأول الخيط . . وهل ندرك عمرنا الحقيقى بطول الأزل والأبد . وبعمق الخلود . وبامتداد الكون كله المرئى منه والخفى . وهل ندرك نسبنا الشريف العظيم إلى الله بارئنا بحكم استمدادنا للروح منه ورجعتنا إليه . وهل ندرك معنى الآية القرآنية العظيمة . .

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كَدْحًا فملاقيه) .

هذا الجهاز سوف يغير العالم

لندن . الجمعة ٥ سبتمبر سنة ١٩٨٠:

اكتشفت آخر الليل أني كنت جالسًا طول اليوم أمام التليفزيون لم أفعل شيئا سوى الحملقة فى الشاشة الصغيرة التى ظلت تستدرجنى من برنامج إلى برنامج . من فيلم إلى رقصة . إلى أغنية إلى ندوة . إلى خبر . إلى استعراض . إلى سيمفونى . إلى ماتش . إلى مسرحية . إلى قصيدة حتى منتصف الليل وأنا فى سريرى معتقلا باختيارى . بل ربما أكثر قليلا من مجرد معتقل . فقد كنت طول الوقت معتقل الحركة أيضًا معتقل الحواس . سجين الانتباه فى شاشة عرضها ٢٢ بوصة لا أستطيع منها فكاكًا .

وحينما كان السلام الملكى البريطانى يعزف لحن الختام كنت أمسح عينى وأتساءل عن تأثير هذا الجهاز السحرى العجيب الذى قلب جميع الموازين فالتليفزيون الجيد أصبح تأثيره الآن عكس تأثير الكتاب

الجيد . . فالكتاب الجيد يحرر الإنسان الذى يقرؤه ، أما التليفزيون الجيد فيعتقل الإنسان الذى يشاهده . . يعتقل جوارحه ويعتقل خياله ويقيد يديه ورجليه .

وساءلت نفسى . . ترى هل هذه هى المعتقلات الاختيارية الجديدة التى توضع فيها المجتمعات العصرية حيث يغسل مخها بالأغانى والرقصات وأفلام العنف ومشاهد الجنس ، ثم تعبأ بالتوجيهات المطلوبة والدعايات المرغوبة .

وأى نوعية من الأجيال الجديدة يمكن أن تخرجها هذه الجامعات التليفزيونية الأمريكية . . لا أظن أنها يمكن أن تخرج النوعية القديمة من الشباب الذى حارب وأقام إمبراطورية . . ولا أظن أن الأجيال الجديدة فى أوربا يمكن أن تحارب بحماس من أجل أية قضية . . فالشباب رخو مرفه ، وهو بعد عمل مرهق طول الأسبوع لا يفكر إلا فى صحبة ممتعة وحضن دافئ وكأس مترعة يغرق فيها عطلة نهاية الأسبوع .

والشباب الجديد فى أوربا يعمل بنشاط ليكسب بوفرة وينفق بكثرة ، وهذه هى العقلية المادية التى تسود العصر . . لا تدع اللحظة تفوتك . . خذ منها أقصى ما تعطيه من كسب ومتعة ولذة . . عش أيامك قبل أن تمضى ولا تعود . .

تلك هى فلسفة اليوم التى يعيش لها وبها الشباب . . بعد المصنع الستريو وعلب الليل والمراقص ومباذل الويك إند . . فلسفة ينشرها ويعززها ويروج لها جهاز خطير اسمه التليفزيون العصرى .

جهاز خطير سوف يغير العالم كله . . وسوف يجعل العهر على الشيوع والانحلال أمرًا عاديًّا ، واتباع الهوى بداهة وطلب اللذة مشروعًا مثل بطاقة سكر التموين .

وفى الجانب الشيوعى والاشتراكى من العالم حيث النظم شمولية ، والحزب الحاكم واحد ومنفرد بالسلطة ، نجد الحصار الإعلامى فى التليفزيون بالغ الذروة فى غسل الأمخاخ وتفريغ العقول . وإعادة ملئها على هوى الحاكم ، وعلى قوالب النظام ، وتكاد البرامج كلها تمشى على جسور مرسومة لا تفلت منها كلمة .

على حين أننا فى الجانب الديمقراطى الحر من العالم حيث تتعدد الأحزاب وتتعدد الآراء وتتعدد الصحف تظهر شواهد كثيرة لهذه الحرية فى البرامج التليفزيونية ، ويجد المشاهد أمامه أكثر من رأى يستمع إليه ويختار منه . . وهو بذلك يفلت من السجن السياسى المضروب على العقول فى النصف الشيوعى من العالم ، ولكنه يقع فى سجن شهواته بما تثير فيه برامج العرى والجنس من رغبات مستعرة تعطل عقله .

ونحن فى الحالين أمام جهاز خطير له قدرة تشكيلية على العقول والأذهان .. وهو مع التكرار والاستمرار سوف يخلق نوعًا من التعود على ألوان من البرامج الاستمتاعية يستحيل بعد ذلك تغييرها أو إيقافها . سوف نصبح أمام جمهور مثل طفل تعود على مصاصة أو لبانة إذا حاولت انتزاعها من فمه ارتفع عويله وصراخه .

ولو وقف مصلح اجتماعى يطالب بإيقاف هذه البرامج اللاهية وتحويل البرامج التليفزيونية إلى نوع من الجامعة الشعبية وتحويل الإعلام الاستمتاعى إلى إعلام تربوى .. مثل هذا المصلح سوف يواجَه بالطوب ومظاهرات الاحتجاج من الجمهور نفسه . جمهور الأغانى والقبلات والمسلسلات والرعب والدم والجنس والكورة .. فمثل هذه البرامج أصبحت الآن أفيونة ومصاصة ولبانة يمضغها المشاهد فى تلذذ ويستمتع بسمومها وينام على تخديرها ولم يعد من الممكن انتزاعها منه إلا باستخدام القوة القهرية .. والقوة القهرية سوف تلقى بنا إلى سجن أسوأ هو الحصار الإعلامى الذى يشكو منه النصف الشيوعى من العالم .. فنحن بين نارين .. والمأزق يسير نحو حارة سد .

وهذا الجهاز السحرى بسبيله إلى إحداث تحولات فى الوعى الإنسانى . ستكون للأسف بالسلب وليس بالإيجاب .

ولن تكون أجيال التليفزيون القادمة أحسن بل أسوأ من أجيال ما قبل التليفزيون .

ويضاعف من الأثر النفسى للتليفزيون .. أننا نتلقى برامجه ونحن فى الفراش فى حالة استرخاء كامل أو فى كراسى وثيرة بالبيجاما وحولنا الأطفال يشربون بعيونهم كل حركة وكل همسة .. وهذه الحالة تجعل النفوس مفتوحة قابلة للتطبع بكل فكرة ترد عليها .

وقد بدأنا نشاهد الآن أطفالاً يرتكبون عمليات قتل وسطو . وطلبة بالجامعة يؤلفون عصابات .. وبعرض العالم كله تنتشر عمليات العنف والخطف واحتجاز الرهائن وتفجير القنابل . وفى المدن الكبرى فى أوربا لا تكاد تجد فتاة بعد السابعة عشرة محتفظة ببكارتها .

وفى أمريكا يقول علماء النفس إن هذه نتائج طبيعية . فالشاب الأمريكى لا يبلغ الثامنة عشرة إلا ويكون قد شاهد أكثر من عشرة آلاف جريمة قتل واغتصاب وزنى وسرقة تمارس أمامه على شاشات التليفزيون . فأى غرابة بعد هذا فى أن يفقد الجسم العارى حرمته . وأن يفقد القانون هيبته . وأن تفقد الأعراف الخلقية سلطانها .

إن العين تألف الانحلال والفساد فيصبح من كثرة عرضه أمامها شيئاً مألوفاً لا غرابة فيه .. وتصبح القبلات والأحضان والمضاجعة أشياء عادية مثل المصافحة .

إن ضغطة بطرف البنان على زرار أصبحت كفيلة باستحضار كل منتجات هذه المدنية العجيبة بعهرها وخلاعتها وفنها وفكرها وعلمها وصلاحها وفسادها فى لحظة .

وصحيح أن التليفزيون يعرض بالفعل فنونًا رفيعة وأفكارًا عالية وهو يقدم الدين والقيم والعظات والعبر إلى جانب الجريمة والجنس والانحلال .. لكن الفساد يأتى فيه مزوقًا جذابًا وهو يغازل النفس بمشتهياتها ، ويراودها فى ضعفها وهو يقدم لها وعدًا عاجلا فوريًا باللذة . فى حين يقدم الواعظ الدينى وعدًا مؤجلا ولا يجد معه مشهيات الفن وزخرفة الشعر والموسيقى والأغانى التى يخدر بها الحواس .. فما تلبث اللحظة الفاسدة أن تجرف أمامها كل المؤثرات الطيبة .. وينام المشاهدون كل ليلة على الجانب اللذيذ المغرى من المسألة .

نحن أمام جهاز خطير يدخل إلى المخادع وغرف النوم .. وأمام برامج تصبح من فرط التكرار من قبيل المناهج السلوكية المقررة التى يتشربها الأطفال والشباب وتسرى فى دمائهم مع الشاى والقهوة والسيجارة .. وتتحول إلى عادات لا فكاك منها .. ثم تتحول إلى سلوك ثم تصبح طباعًا وأنماطًا وملامح عصر .

هل نحن أمام جهاز سيغير العالم .. ؟ ! ! قد يجيب البعض بأن

المشكلة قائمة حتى فى البلاد التى شددت الرقابة على التليفزيون . ومنعت إقامة دور السينما العامة .. فرغم الحظر والرقابة والمنع ظهرت فيها مصيبة أخطر هى أشرطة الفيديو المتسللة والمهربة والأفلام الجنسية تعرضها الشلل والعائلات المحترمة فى بيوتها الخاصة .. وفيها من الغواية والإفساد والفحش أضعاف ما فى السينما المباحة .. ومن وراء هذه الأشرطة المهربة تقوم تجارة عالية منظمة ومكاتب مافيا جنسية متخصصة تعمل على نشر وتسجيل وترويج هذه البضاعة المدمرة . وتدفع مبالغ مغرية للممثلات المشهورات فى مقابل دقائق من اللقطات الجنسية الفاضحة لإثارة فضول المشترى واجتذابه للصنف .. سوق نخاسة إلكترونية جديدة ضحاياها ملايين .

وهكذا تتنوع صنوف الإغواء التى يتعرض لها المواطن .. فمن ينجو من الإعلام الشيوعى اليسارى يقع فى حبال الإعلام الفاشى اليمينى . ومن ينجو من غسل مخه فى الناحيتين يقع ضحية الإعلام المنحل فى النظم الغربية الديمقراطية . ومن يلجأ إلى البلاد المحافظة التى تغلق على نفسها الأبواب والنوافذ وتحكم ترابيس المنع والرقابة لا يسلم من تسلل أشرطة الفيديو وأفلام البورنوجرافى من تحت عقب الباب .. ومن وراء كل هذا تقوم سوق المخدرات والكوكايين والهروين وأقراص المزاج وحقن الماكستون فورت تهيئ الجو وتعد المناخ .

طوفان من المؤثرات يسير بنا إلى عصر سدوم وعمورة جديد . وفتن يقف منها الحليم حيرانَ . ويتساءل المتسائلون . . هل من حل .

وبرغم كل شيء . . وبرغم تحالف الظلمة على هذا العصر . . فأنا أرفض العنف كحل . . ولا أؤمن إلا بالوعى والحرية وإحياء الضمائر والمناقشة العلنية المفتوحة وفتح النوافذ على العيوب والاعتراف بالنقائض وعلاجها . لا رجوع إلى وراء . . ولا رفض لمكتسبات العلم .

التليفزيون والسينما والراديو أدوات محايدة بريئة وهى علامات تقدم . . وإنما هى تصبح علامات تأخر بما يوضع فيها .

والحل هو ترشيد الإعلام عن طريق مائدة مستديرة يدير الحوار فيها حكماء العصر وعقلاؤه فى محاولة لإقامة مبادئ جديدة للرقابة الواعية على الكلمة المذاعة . أما عصابات المافيا الجنسية والمخدرات فتحارب بأساليبها .

ثم يبقى بعد ذلك وقبل ذلك أن ينتصر كل منا فى حربه مع نفسه أولا . ومن يخسر حربه مع نفسه يخسر فى كل الميادين . ولن ينجيه قانون أو نظام أو عصبة أمم . . فهو قد خذل جميع القوانين حينما وضع سلاحه واستسلم للهوى من أول معركة .

فمن هناك لينصر ذلك الذى لم ينصر نفسه

وفى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى يقول الرب لعبده :

« الهوى رسول من رسل بأسى الشديد أرسلته إليك . وفى الهوى نارى . فإذا جاءك جاءتك نارى فأدخلها . . قلت كيف يارب أدخلها . . قال لا تستجر بعلم ولا بمعرفة فإذا استجرت بهما أسرك الهوى وأسرهما . . واعلم أنه لا مجير من الهوى إلاّ أنا . . ولن تخرج من نار الهوى بعلمك ولا بمعرفتك . . وسوف تقيم فى النار حتى تأكل النار الجزء التالف من عقلك ومن نفسك . . فإذا أكلت النار ذلك الجزء تطهرت وأدركت أنه لا مجير من الهوى سواى فصرخت إلىّ فجئتك وصرفت عنك نارى فلم تعد إليك » .

ويقول ربنا فى كتابه الكريم فى أجمل آيات التوكل .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون) .

[الأنفال ٢٤]

وذلك هو التدخل الإلهى اللطيف فى لحظات التردى حينما يشرف الواحد منا على إهلاك نفسه فتأتى المشيئة الإلهية فتحول بين الواحد منا وشهوة قلبه فتنقذه .

وذلك هو الأمل الذى يفتحه الله للصارخين والمستنجدين حينما تغلق كل الأبواب . وحينما يطم الطوفان . وحينما لا تعود الحكمة تنجى ولا العقل يفيد . وحينما يشاء الله حسن الختام . ادعو معى بحسن الختام .

المسلمون في يوغوسلافيا

مدينة موستار   رمضان ١٩٨٢

تكية الدراويش على منابع نهر بونا . فى قلب يوغوسلافيا . . والمياه تنساب فى مساقط وشلالات صغيرة ، وتنعقد فى دوامات لتجرى كدوائر من اللؤلؤ تحت قدمى . وعلى جدران التكية تتدلى مسابح طويلة . وعلى السقف آيات قرآنية ورسوم وكتابات بالتركية والعربية يعود تاريخها إلى أكثر من أربعة قرون منذ دخول الأتراك من ٤٥٠ سنة .

ومن النافذة أرى نهر بونا يخرج من أعماق مغارة فى وسط الجبل وينساب مثلجا باردا برغم الجو الشديد الحرارة .

غسلت وجهى الملتهب بماء النهر المثلج وتوضأت واستقبلت القبلة . .

من هناك .. حيث القبلة أمامى .. من قلب مكة .. من أكثر من ألف وأربعمائة سنة خرج رجال يحملون كلمة لا إله إلا الله ليصلوا

بها كاندفاع الريح إلى شواطئ الأطلسي والفارسي . وليعبروا المتوسط . وليدخلوا من بوابة البلقان إلى قلب أوربا . ومن مضيق جبل طارق إلى إسبانيا . . وعلى هذه الأرض مازالت آثار خطواتهم على الرمال . . ومن هذه المياه شربوا وتوضئوا .

لا . . لم يكن بالسيف دخول الإسلام إلى هذه الأرض . فقد جاء بهذا الدين تجار مسالمون منذ القرن الحادى عشر إلى يوغوسلافيا وآمن به اليوغسلاف القدامى (فى جمهوريات البوسنة والهرسك وكرواتيا ومكدونيا) اختيارا ومحبة قبل أن يأتيهم الأتراك غزاة . . وقبل أن يرتفع سيف أو ينطلق سهم . . إن تاريخ الإسلام على هذه الأرض قديم .

وعلى هذا الجبل الشاهق لم يصعد جندى تركى واحد إلى دير البوجوميل على القمة ، حيث اعتزلت طائفة من النصارى الأوائل رفضوا المذاهب الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية ، واعتصموا بديانتهم الأولى الفطرية . . لم يصعد إليهم جندى تركى واحد ولكنهم هم الذين نزلوا من القمة مرحبين بسفراء لا إله إلا الله . . قائلين فى فرحة . . لقد كنا فى انتظاركم . . لقد قرأنا خبر نبيكم فى إنجيلنا وأسلموا جميعًا من فورهم . . ومازال الدير القديم على قمة الجبل يحكى القصة ، ومازال الطريق إلى الدير وعرًا لا يستطيع أحد أن يتسلقه

وحينما انحسر الغزو التركى وضعفت الدولة العثمانية ، واستولت الإمبراطورية النمسوية على أوربا ، وفرضت مذهبها الكاثوليكى ثم من بعد الحرب العالمية الأولى حينما تكونت مملكة صربيا ، وفرضت مذهبها الأرثوذكسى . . ثم بدأت الحروب الطائفية بين الكاثوليك والأرثوذكس ، وبين الاثنين والمسلمين ظلت يوغسلافيا مسرحًا للحروب يقتل بعضها بعضًا لم ينقذها من الهلاك إلا جنود تيتو من جيش التحرير .

بطول هذه الحروب لم تستطع السيوف أن تنزع كلمة لا إله إلا الله من قلب أربعة ملايين مسلم . . هم مسلمو يوغوسلافيا اليوم . ولم يكن ما حدث منذ ٤٥٠ سنة فى يوغوسلافيا استعمارًا تركيًا . . فلم يدخل الغزاة الترك لينزحوا خيرات البلاد ولا معادنها ولا كنوزها كما فعلت إنجلترا وفرنسا من بعد . . وإنما دخل غازى خسرو بك إلى سيراييفو ليبنى مسجدًا ومكتبة ومدرسة إسلامية ، وليخصص وقفا لختم المصحف كل يوم يوزع ريعه على ثلاثين قارئًا يختمون المصحف كل يوم . . ومازال هذا الختم مستمرًا إلى اليوم فى مسجد خسرو بك الكبير فى سراييفو ، حيث يجتمع ثلاثون قارئا يتمون المصحف . وهو تقليد لا مثيل له فى أى مسجد فى العالم . . كما أنشأ خسرو بك تكية لإطعام الفقراء . ولتقديم وجبة للمسافرين وعلفًا لخيولهم .

ومكتبة غازى خسرو بك بها ١٥ ألف مخطوط من أنفس الكتب .

ومدرسة خسرو بك كانت تخرج الأئمة والوعاظ والعلماء . وكانت تركيا تصرف للمدرس اليوغسلافى نفس المرتب الذى تصرفه للمدرس التركى فى الآستانة .

وداماد على باشا فاتح موريا (بوابة البلقان وأكبر قلعة فى أوربا فى ذلك الحين) هو الآن مدفون فى كالعاميجدان (قلعة ميدان) وله ضريح يزار ويلقون القروش فى ضريحه تبركًا . وذلك لسمعته فى عمل الخير ونجدة المظلوم ومعونة المحتاج .

لم يكن الغزاة غزاة .. وإنما حملة حضارة .. ولكن الذين كتبوا التاريخ كتبوه على هواهم . وكانت لهم مصلحة فى تشويه الحقائق .

ولقد ظلت المنطقة تعج بالحروب والفتن والانقسامات حتى جاء تيتو فاستطاع أن يوحد جمهوريات يوغوسلافيا الثانى ذات اللغات المتعددة (صربية وكرواتية وسلوفينية .. الخ) . والديانات المتعددة (إسلام وكاثوليك وأرثوذكس وشيوعيين) تحت علم واحد وولاء واحد . ونص تيتو فى دستوره على حرية المسلم فى أداء شعائره والدعوة لدينه . وكذلك حرية المسيحى وحرية الشيوعى . ويحفظ له المسلمون الجميل ويقولون إنه أنقذ الإسلام والمسلمين من المصير الذى حاق بهم فى ألبانيا والمجر وبولندا وروسيا .

كما أنه أنقذ يوغوسلافيا من الشيوعية الستالينية ، ومن الحروب الطائفية ، ومن التبعية العمياء لروسيا أو أمريكا .. واختار لها خطًا اقتصاديًا خاصًا بها هو دولة المؤسسات .. وهو ذلك الخط الوسط الدقيق بين ملكية الفرد وملكية الدولة .. فالمؤسسات فى يوغوسلافيا ليست مؤممة ، ولكنها ملكية خاصة – جموعية – للعاملين فيها يعود عليهم ربحها وخسارتها .. وهذا يعطيهم الحافز للعمل والخدمة الأحسن .

وقد قرأ تيتو القرآن ثلاث مرات (فى ترجمته اليوغوسلافية) ، وكانت آخر مرة فى مرضه الأخير .. كما أوصى قبل موته بألا توضع على قبره النجمة الشيوعية ، وبألا يكفن فى الكفن الأحمر الذى يكفن به الشيوعيون .. كما رفض أن يوضع على قبره الصليب ، وأن يدفن تبعًا لأى طقس مسيحى ، وطلب أن يدفن فى بيته بلا طقوس ، وألا يكتب على قبره أى كلمة سوى تيتو – ولد فى كذا ومات فى كذا .

وذهب وذهب معه سره .. ولا نعلم على أى عقيدة مات .. ولكنه ترك وراءه يوغوسلافيا الوحدة والسلام والحرية والعمار .

ووراء بقاء كلمة لا إله إلا الله فى يوغوسلافيا ، وبقاء الإسلام حيًا فى قلعة الإلحاد الأوربية جهود خارقة لجنود مجهولين .. كما أن وراءه تخطيطًا وتنظيمًا مستنيرًا متقدمًا متطورًا .

والوحدة الإسلامية فى يوغوسلافيا هى المسجد . وللمسجد مجلس إسلامى يديره . ثم إن لمجموع المساجد فى مدينة مجلسًا أعلى . ثم إن لمجموع المدن مجلسًا نيابيًا فى كل جمهورية من الجمهوريات اليوغوسلافية . وهذا المجلس النيابى ينبثق منه مجلس إسلامى تنفيذى يسمى « المشيخة » . والمشيخة الإسلامية هى الوحدة الفعالة التى تقوم بجميع الأعمال الدينية من تعيين الأئمة والوعاظ والخطباء . إلى إنشاء المدارس الإسلامية . إلى إصدار النشرات والمجلات والكتب . إلى بناء المساجد وتعيين المفتين . ويرأس المشيخة رئيس مختار من المجلس النيابى وفوق الكل رئيس العلماء .

وفى المشيخة الإسلامية لجمهورية البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا ومقرها سراييفو . التقيت برئيس المشيخة الدكتور أحمد سمايلوفتش ، وهو متخرج من الأزهر ، وحائز للدكتوراه على رسالة نادرة عن الاستشراق . . قال لى الدكتور أحمد :

— فى الجمهوريات اليوغوسلافية أكثر من ألفى مسجد وجامع . . وفى مشيخة سراييفو وحدها أكثر من ألف واعظ ومرشد دينى وعندنا هنا فى سراييفو مدرسة ثانوية لتخريج الأئمة يدخل فيها الطالب من سن الخامسة عشرة ، ويعيش فى حضانة كاملة وإشراف دينى كامل من اللحظة التى يصحو فيها إلى اللحظة التى يرقد فيها لينام ، وفى

المدرسة عنابر للأكل وعنابر للنوم . وفيها مكتبة وعلى الطالب أن يصلى جميع الفروض فى المسجد فى أوقاتها . وأن يتابع ويقرأ كل ما يستجد من العلوم المفيدة .

وفى سراييفو أيضا معهد دينى مماثل للبنات لتخريج الداعيات المسلمات . وقد سمعت إحداهن واسمها سعادة سرنا . تقرأ القرآن وتجوده فى مسجد تشاى تشا بصوت جميل ساحر . وحولها رواد المسجد يستمعون فى خشوع . وقد أغمضوا عيونهم واخضلت لحاهم بالدموع . وقد أنشأت المشيخة أيضًا كلية للدراسات الإسلامية

يقول الدكتور أحمد سمايلوفتش : نحن نعيش فى قلب أوربا فى مناخ ثقافى مستنير . يعج بالتيارات الفكرية . وعلى المسلم أن يقرأ ويتعلم وينفتح على جميع التيارات ليعرف كيف يتعامل معها فى سلام . وكيف يرد عليها بمنطق وبموضوعية وبعلم دونما تعصب

نحن نترجم ونطبع وننشر هنا كل جديد فى الفكر الإسلامى من جميع اللغات وعندنا ناد للشباب يلتقى فيه الشباب من الجنسين فى ندوات ولقاءات فكرية أسبوعية . يدور فيها الحوار فى كل ما يشغل البال من مشاكل العلم والدين والمجتمع

وتصدر المشيخة مجلة نصف شهرية هى البعث الإسلامى . وأخرى شهرية هى الفكر الإسلامى هذا غير مجلة زمزم التى يصدرها طلاب

معهد خسرو بك كل شهرين . وقد أنشأنا مركزًا إسلاميًا فى مدينة لوبليانا . ونحن الآن نقوم بإنشاء مركز ثان فى زغرب قدرت تكاليفه المبدئية بستة ملايين دولار .

والاستماع إلى الدكتور أحمد سمايلوفتش متعة . فهو شعلة من الحماس والحركة والنشاط والعمل الدائب . وهو مثال نادر لهذا التزاوج العجيب بين الروح الأوربية والقيم الإسلامية الرفيعة . فأنت ترى فيه الهمة والمبادرة والإيجابية التى تراها فى الأوربى . كما ترى فيه السماحة والتواضع والحلم والكرم والإيمان وطمأنينة القلب ووداعة النفس التى لا تراها إلا فى المتدين .

وهو نموذج جديد مبشر بحضارة جديدة سوف تنشأ من تزاوج الحضارة الإسلامية بالحضارة العلمية الأوربية . وهو ورفاقه المناضلون . عبد الرحمن هوكتش . وحمدى يوسف سباهتش . وسعيد إسماعيل كتش وشوقى عمر باشيك وغيرهم من الكثرة الذين قابلت وعرفت . هم طلائع جيل جديد من الصفوة مثلهم بالنسبة لأوربا مثل الصحابة الأوائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فى مجتمع الإسلام الأول .

قالى لى حمدى يوسف سباهتش مفتى بلغراد :

— كانت أغنية المهد التى تهدهدنى بها أمى هى كلمة لا إله إلا الله

تغنيها فى حنان ، وهى تهزنى بين ذراعيها حتى أنام . وكان أول ما نطقت به شفتاى . وأنا رضيع هى كلمة لا إله إلا الله . وكان آخر ما قالت لى أمى وهى على فراش موتها : ياولدى أهون علىَّ أن تموت مؤمنًا شهيدًا من أن تعيش وزيرًا كافرًا .

قال هذا ودمعت عيناه وهو يعود بخياله إلى مشهد وفاة أمه الأخير .

قال لى : لقد جئت إلى بلغراد مع زوجتى المصرية ، وليس فيها إلا مسجد واحد تبقى من ٢٧٣ مسجدًا هدمت كلها وأزيلت . . وحتى هذا المسجد الواحد كان مغلقاً . . وكان المفتى السابق يلزم بيته لا يبرحه خوفاً من الناس .

قال وعيناه تلمعان . . ولففت عمامة المفتى على رأسى . ومشيت فى شوارع بيوجراد أبتسم لكل من ألقاه . وألقى إليه بتحية الإسلام . . وأحبنى الكل . . وأحببت الكل . . . الكاثوليكى والأرثوذكسى والشيوعى والمسلم .

وفتحت المسجد . . ولم يتسع لكثرة المصلين فى العيد . فأخذناهم على ثلاث نوبات فى كل مرة ستمائة .

ولا أنسى ما رأيت من أمر هذه الصفوة الطيبة فى سراييفو يوم العيد . وقد اجتمعوا فى بيت مدرسهم وأستاذهم العجوز دكتور أحمد توزلتش أستاذ اللغة اللاتينية واليونانية ٨٩ سنة . . وتكوموا ليجلسوا

معهد خسرو بك كل شهرين . وقد أنشأنا مركزًا إسلاميًا فى مدينة لوبليانا . ونحن الآن نقوم بإنشاء مركز ثان فى زغرب قدرت تكاليفه المبدئية بستة ملايين دولار .

والاستماع إلى الدكتور أحمد سمايلوفتش متعة . فهو شعلة من الحماس والحركة والنشاط والعمل الدائب . وهو مثال نادر لهذا التزاوج العجيب بين الروح الأوربية والقيم الإسلامية الرفيعة . فأنت ترى فيه الهمة والمبادرة والإيجابية التى تراها فى الأوربى . كما ترى فيه السماحة والتواضع والحلم والكرم والإيمان وطمأنينة القلب ووداعة النفس التى لا تراها إلا فى المتدين .

وهو نموذج جديد مبشر بحضارة جديدة سوف تنشأ من تزاوج الحضارة الإسلامية بالحضارة العلمية الأوربية . وهو ورفاقه المناضلون . عبد الرحمن هوكتش . وحمدى يوسف سباهتش . وسعيد إسماعيل كتش وشوقى عمر باشيك وغيرهم من الكثرة الذين قابلت وعرفت . هم طلائع جيل جديد من الصفوة مثلهم بالنسبة لأوربا مثل الصحابة الأوائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فى مجتمع الإسلام الأول .

قال لى حمدى يوسف سباهتش مفتى بلغراد :

– كانت أغنية المهد التى تهدهدنى بها أمى هى كلمة لا إله إلا الله

تغنيها فى حنان ، وهى تهزنى بين ذراعيها حتى أنام . وكان أول ما نطقت به شفتاى ، وأنا رضيع هى كلمة لا إله إلا الله . وكان آخر ما قالت لى أمى وهى على فراش موتها : ياولدى أهون علىّ أن تموت مؤمنًا شهيدًا من أن تعيش وزيرًا كافرًا .

قال هذا ودمعت عيناه وهو يعود بخياله إلى مشهد وفاة أمه الأخير .

قال لى : لقد جئت إلى بلغراد مع زوجتى المصرية ، وليس فيها إلا مسجد واحد تبقى من ٢٧٣ مسجدًا هدمت كلها وأزيلت . وحتى هذا المسجد الواحد كان مغلقًا . وكان المفتى السابق يلزم بيته لا يبرحه خوفًا من الناس .

قال وعيناه تلمعان . ولففت عمامة المفتى على رأسى . ومشيت فى شوارع بيوجراد أبتسم لكل من ألقاه . وألقى إليه بتحية الإسلام . وأحبنى الكل . وأحببت الكل . الكاثوليكى والأرثوذكسى والشيوعى والمسلم .

وفتحت المسجد .. ولم يتسع لكثرة المصلين فى العيد . فأخذناهم على ثلاث نوبات فى كل مرة ستمائة .

ولا أنسى ما رأيت من أمر هذه الصفوة الطيبة فى سرايفو يوم العيد . وقد اجتمعوا فى بيت مدرسهم وأستاذهم العجوز دكتور أحمد توزلتش أستاذ اللغة اللاتينية واليونانية ٨٩ سنة . وتكوموا ليجلسوا

فى ظله وكأنهم يتظللون فى ظل سنديانة . وهو يذهب ويعود فى نشاط وفى يده أطباق الكعك يقدمها لهم فى حب وأبوة وهم يأكلون من يده ، ويدعون له بالصحة والعمر ، وينظرون إليه فى احترام وإجلال ومودة .

قال لى الدكتور أحمد سمايلوفتش هامسًا وهو يشير إلى أستاذه :

— إن سيدنا يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب مع أنه لا يعرف العربية .

ولما رآنى أبدى دهشتى قال : هذا حال الألوف من أهل يوغوسلافيا . يحفظون القرآن ويتلونه ويبكون دون معرفة بالعربية ، وهم يسمون الذى يحفظ القرآن حاجى حافظ .

وكنت مازلت على دهشتى .. أعجب فى نفسى .. ماذا يعنى عندهم اللفظ القرآنى حتى يبكون لتلاوته .. هل هو الإيقاع .. أو النغم .. أو السر الإلهى الذى وراء الإيقاع ووراء النغم ووراء الحروف .

وقد ظللت على دهشتى حتى رأيت بنفسى الأعداد الغفيرة من اليوغوسلاف الذين يصلون يوم العيد يبكون فى أثناء الاستماع إلى تلاوة القرآن دون أن يعرفوا من العربية حرفًا .

وخطباء الجمعة يبدأون الخطبة بالعربية ، ثم يترجمون ما قالوا بإسهاب إلى اللغة اليوغوسلافية .

وهناك محاولات دائبة ومستمرة لتعليم اللغة العربية ونشرها ولكن إيمان الناس لم ينتظر . وإنما عانقوا لا إله إلا الله وافتدوها بأرواحهم . وأمنت قلوبهم واطمأنت نفوسهم . وشبعت أرواحهم وقالوا : نتعلم فيما بعد وتشبع عقولنا فيما بعد .

وهنا يأتى دور المشيخة الأسطورى فى نشر الفكرة الإسلامية وترجمتها وتوصيلها إلى الملايين العطاش . وإلى العقول المتلهفة التى تريد أن تعرف ماذا فى هذا القرآن الذى سحرها

رسالة شاقة حملها هذا النفر القليل من الصحابة الكرام يبدأون من الصفر من اللوح الأردواز والأبجدية . ويمشون مع الناس حرفًا حرفًا .

وأكبرت فيهم هذه الروح . ورأيت فيهم لونًا من الإسلام الأول فى نقائه وفطريته وبكارته وطهارته

ولا شىء يشبه ذلك إلا طبيعة يوغوسلافيا ذاتها جبالها وأوديتها وينابيعها العذبة . وزروعها الخضراء وغاباتها الكثيفة . وورودها الزاهية . وسماؤها الصافية

والماء يتفجر من كل مكان باردًا مثلجًا نقيًا عذبًا من تحت قدميك

جمال بكر فطرى غير مصنوع . تغسله الأمطار وتصففه يد

الرياح . كان شيئًا مختلفًا عن جمال النمسا الذى رأيته فيما بعد ذلك الجمال المصنوع . فالأشجار والحشائش والغابات فى النمسا صففتها يد (الكوافير) البشرى . وهندستها وخططتها يد مهندس الديكور . مثل وجوه النساء هناك .. الحواجب مرسومة بالقلم والخدود مغطاة بالمساحيق . وفى يد كل امرأة كلب هو الآخر مصفف الشعر

وبين حدود النمسا وحدود يوغوسلافيا دقائق . ولكن كل منهما عالم غير العالم وناس غير الناس .

وعشت فى النمسا وقلبى معلق بالصحبة الكرام فى سراييفو . وخيالى مازال يصغى إلى صوت سعادة سرنا التى سمعتها تقرأ القرآن فى مسجد تشاى نتشا . والعيون حولها مغمضة واللحى مخضلة بالدموع

وشعرت أنى تركت أهلى وعشيرتى هناك

وتمنيت لو رأيت أحمد سمايلوفتش إلى جوارى لأكلمه

وكنت مازلت أسمعه يقول لى :

– لماذا تريد أن تتركنا وتذهب إلى النمسا . وماذا عندهم فى النمسا مما لا يوجد عندنا ؟ عندهم جبال وعندنا جبال . عندهم غابات وعندنا غابات . عندهم عيون معدنية وعندنا عيون معدنية . نعم ياعزيزى أحمد وتلك أوربا . وهذه أوربا

ولكن مع ذلك كنت أشعر أنى أمشى فى قارة أخرى . الجبال غير الجبال . والغابات غير الغابات . والناس غير الناس . وبرغم أنى وجدت الصحبة الكريمة مع عشرات من المصريين الذين صادفتهم فى النمسا (وفى النمسا خمسون ألف مصرى يعمل أكثرهم فى بيع الصحف) وكنت أجد المودة المصرية والنكتة المصرية والكرم المصرى فى كل مكان . وبرغم أنى وجدت الجمال المهندم . والأشجار المصففة المقصوصة . كأنما خرجت من تحت مقص الكوافير سقراط . إلا أنى ظللت أفتقد شيئًا فى الدنيا حولى . وفى الجو وفى الناس وفى الحياة

إن النمسا أشبه بفندق جميل أو قاعة موسيقى . أو صالة رقص أو مدينة ملاهى . وكل واحد يعمل ليكسب ويستمتع . والحياة عند الكل هى الهدف والقيمة . ماذا تأكل وماذا تشرب ؟ ومن تصاحب وأين تذهب هذا المساء ؟ ! وفى أى حضن تلقى بنفسك آخر الليل ؟ ! هذا هو ما يشغل البال . وبعد ذلك لا شىء يهم

ولكن عند أصحابنا فى سراييفو كانت هناك أشياء أخرى كثيرة تهم . والبعض هناك ضحى باللقمة الهنية ولم يفكر فى السهرة أو السكرة أو الحضن الدافئ . وراح يكدح ليوصل إلى الناس معنى أو يدفع عنهم باطلا . أو يجلو لهم حقيقة . وأضاع فى كدحه زهرة العمر وسنى الشباب . يفعل هذا دون شعور بحرمان . ودون أن يغبط

الآخرين الذين سبقوه إلى المتعة .. وإنما هو يكدح بلذة وطمأنينة . ويشعر بالإشفاق على كل الذين يستمتعون بغفلة . ويتمنى لو استطاع أن يوقظهم .. وهو موقن أنه يموت فيلقى ربه فيسأل .. وهذا اللقاء عنده هو كل شيء .. وهل بعد الله شيء أو قبله شيء ؟! وهل يساوى الله شيء ؟! ذلك هو الإيمان البسيط الفطرى الذى يغير الحياة .

والإسلام ليس أكثر من طريقة حياة . إنه ليس شعائر ولا مناسك ولا أزياء ، ولا حوقلة ولا بسملة .. وإنما هو طريقة حياة ورؤية وتذوق وسلوك وخلق .

ولهذا كانت سراييفو قارة مستقلة بذاتها فى قلب أوربا .. مستقلة بأهلها وناسها وعاداتها وسلوكياتها .

سلام على سراييفو

وسلام على أحمد سمايلوفتش وصحبه فى العالمين

على شاطئ رودس

رودس فى ١٠ أبريل سنة ١٩٨٢ :

كنت أنقل أصابعى فى كسل بين المحطات على الراديو الترانزستور الصغير فى كفى . وأستمع إلى الأغانى اليونانية ! . كانت الألحان مزيجًا عجيبًا من المواويل المصرية . والفولكلور الصعيدى . والتواشيح الأندلسية والفلامنكو الأسبانى . وإيقاعات الجرك والرقصات الأمريكية المجنونة . وفى محطات أخرى أنغام السيمفونى والأوبرا وماريا كالاس .

وكانت الصحيفة اليونانية فى يدى تمتلئ بالمانشتات الحمراء عن مظاهرات الحزب الشيوعى التى تطالب الحزب الحاكم (وهو الحزب الاشتراكى) بالمزيد من التأميمات ! . وصور عن مسيرات الشباب تحمل الأعلام الحمراء . وتماثيل لينين وماركس وإنجلز . وفى مكان آخر عناوين بارزة للثورة المضادة التى تجرى فى الخفاء . والتى يقودها

أصحاب المصانع . . عشرات المصانع أعلنت إفلاسها وأغلقت أبوابها وسرحت آلاف العمال . شركات النقل البحرى توقفت عن العمل بسبب مقاطعة السوق الأوربية المشتركة للناقلات اليونانية الضخمة (كأسلوب ضغط على النظام الاشتراكى القائم) . . وفى صفحة البورصة هبوط حاد لأسعار الدراخمة اليونانية . وارتفاع حاد لأسعار الدولار . . وأعمدة كثيرة عن البطالة والبيروقراطية وهبوط الإنتاج .

كان كل شىء يتحدث عن حيرة هذا البلد من بلدان العالم الثالث . وتخبطه بين النظام الرأسمالى والنظام الشيوعى . وما يعانيه من شد وجذب بين الشرق والغرب وضياعه فى فلك القوتين الأعظم . . أمريكا وروسيا . . شأن كل دول العالم الثالث .

ولكن برغم كل شىء . . فقد كانت الحياة تبدو أوربية غربية فى ظاهرها . والشارع اليونانى يبدو كشوارع لبنان . لا ينتمى لسياسة ولا لمذهب سوى الربح وبأية وسيلة .

واليونانى العادى يتاجر فى كل شىء . حتى فى تاريخه وماضيه . ويصنع من حضارته القديمة بوتيكات ودكاكين وأسواق ومعارض ومتاحف وسوبر ماركت وبازار) .

السياحة هنا هى بئر البترول الوحيدة التى تعيش اليونان من عائداتها . والسياحة لكى تكون سياحة ناجحة يجب أن تكون بلا لون

وبلا طعم وبلا رائحة . تكلم كل واحد بلغته ، وتلبس لكل واحد لباسه وتقدم لكل واحد مشربه .

ولذلك تسمع اليونانى العادى يتحدث عن فوز الحزب الاشتراكى بأنه سقطة ما كان يجب أن تحدث ، ويقول لك : ما لنا نحن ومال روسيا . ولماذا ننحاز لليسار أو لليمين . نحن تجار نتعامل مع الكل . وبلد سياحى يرحب بالكل . ثم يضيف قائلا فى ثقة : بأن الحزب الحاكم جاء ليفشل ويرحل . وأنه لن يعمر طويلا . . وأن اليونان لتصبح اشتراكية لابد أن تخسر نفسها وشخصيتها ثمنا لهذا التحول ، ثم لا تتحول بعد ذلك لشىء يذكر .

أما لماذا فاز الحزب الاشتراكى ؟ . . يمصمص اليونانى شفتيه ويقول : جنون التغيير عند الشباب : مجرد التغيير . مجرد الملل من الوجوه القديمة ، وعيب الشباب أنه عاطفى يصدق الخطب . ويصدق الشعارات .

إنهم يكذبون . . كلهم يكذبون . ولكن من كثرة ما كذبوا بدءوا يصدقون أنفسهم . هذه أمور تحدث فى أحسن العائلات .

هيه . . ما رأيك . . تشترى تمثال أفلاطون إنه أوبال فخم .

وماذا تقول فى هذا التمثال الآخر . . إنه لديوجين صاحب المصباح الشهير الذى كان يبحث عن الحقيقة بفانوس فى عز النهار

بوتيك . ورودس كلها بوتيك جميل على البحر .

وكانت السويدية الشقراء على يميني تقلب هي وصاحبها بضعة تماثيل لإله التناسل . واختارت التمثال الكبير صاحب أكبر عضو تناسلي . وقال لها اليوناني وهو يبتسم : هذا كبير آلهة التناسل وله في رودس معبد قديم . . وكانوا يعبدونه في الماضي ويقدمون له القرابين

قالت وهي تضحك وتضمه إلى صدرها : صدقني لم يتغير الأمر كثيرًا فهو مازال يعبد إلى الآن وحياتك . . وله معابد كثيرة بعدد غرف النوم في كل مكان .

وعادت تضحك مردفة في دلع : هذه هي الصلاة الوحيدة التي يحافظ عليها الكل . وفي المساء شاهدتها وصاحبها في الفندق وكانا يحملان زجاجة شمبانيا .

وفي الصباح كانا ممددين في الحديقة عاريين تماماً يأخذان حمامًا شمسيًا . أو لعلها كانت صلوات الصباح . لهذا الصنم القديم إله التناسل .

ظاهرة الخوميني

رجل يبدأ حياته فى الثمانين فيقود أمة ويخوض حربًا ويغير الخريطة الجغرافية والتاريخ . ظاهرة حيرت الأفهام واختلف فى تفسيرها الخصم والصديق .

قال الخصوم هو رجل روسيا تخرب به المنطقة . وتستنفد طاقاتها واقتصادها بالحروب . وإنه المرحلة التى تأتى بعدها الشيوعية . وإنه الوسيلة الذكية التى تستعملها روسيا لتنفر الشعوب من الدين ورجاله . فيفتح الكل ذراعيه بعد ذلك للفكر الشيوعى اللادينى . واستشهدوا على كلامهم بأن ٩٩٪ من السلاح الذى يحارب به الخومينى سلاح روسى يأتيه عن طريق وسائط عربيةوسلاح إسرائيلى أيضا . فكيف يعقل أن تضرب روسيا الإسلام فى أفغانستان وتنصره فى إيران ؟ وكيف يعقل أن تكون إسرائيل نصيرًا لمسلم ؟

وقال الأصدقاء : هذا تشويه للرجل . فلا يمكن أن يكون رجل روسيا ، ثم يخوض حربًا ضد الشيوعية فى بلاده . ويستدرج الحزب

الشيوعى « مجاهدى خلق » إلى مذبحة دموية يستأصل فيها شأفته لا يساوم ولا يهادن .. إنه الإسلام . فالشباب الذى يحمل كفنه ويذهب للحرب يقاتل حتى الموت تحت راية لا إله إلا الله لا يعرف غيرها راية .

وقال خصوم آخرون : بل هو رجل أمريكا .. فلولا خذلان أمريكا للشاة لما استطاع الخومينى أن يقف على قدميه .. ولو تحركت أمريكا والثورة الإيرانية فى المهد لأجهضتها .

وقالوا : هى لعبة الأمم . فمن مصلحة روسيا وأمريكا وأوربا الخلاص من أكبر قوتين عسكريتين فى المنطقة . ومن أكبر ترسانتى سلاح وهما العراق وإيران . ولهذا استدرجوا الاثنين إلى مذبحة . وظلوا يمدون الحرب بالوقود والسلاح . ويشعلون النار كلما خبت زادوها سعيرًا .. كما استدرجوا الأموال العربية إلى هذه الحفرة . واستنزفوا الثروة النفطية لجميع الجهات العربية التى تساعد العراق . والتى تساعد إيران . ومازال كل بلد عربى يدفع . ومازالت الحفرة تبلع والاستنزاف مستمر ولا يؤذن بنهاية .. وهى لعبة تستفيد منها أمريكا وروسيا وأوربا وإسرائيل والعالم شرقه وغربه .. بل إن القضاء على هذه القوة العسكرية العراقية . والقوة العسكرية الإيرانية هو ضمان وأمان وراحة بال للجيران العرب الضعفاء . والأقل تسليحًا على شاطئ الخليج ..

فهى إذن مقتلة يستفيد منها الكل القريب والغريب .. ولهذا يسكت عليها الكل ويساعد فيها الكل .

لكن الظواهر التاريخية أعقد من أن تصلح لها التفسيرات البسيطة الساذجة .. والتاريخ مجموعة عوامل شديدة التداخل وشديدة التعقيد .. وقد يبدو فى الظاهر أن روسيا وأمريكا يستعملان الرجل لمصالحهما .. ثم تنكشف الحقيقة فإذا بالرجل هو الذى استعمل الاثنين ليصل إلى غايته .. والفرق شعرة دقيقة بين أن تكون خادعًا ومخدوعًا .. وهو فرق لا يستطيع أن يتبينه ذكاء صحفى .

وقالوا : إن الرجل هو الفتنة الكبرى التى حاقت بالإسلام .. وإنه هو الإمبراطورية الساسانية الفارسية تعود من جديد فى عباءة لا إله إلا الله . لتقسيم الإسلام إلى شيعى وسنى يقتل كل منهما الآخر . فلا تقوم للإسلام بعد ذلك قائمة . والقائلون بهذا لم يكتفوا باتهام العمل بل اتهموا النية أيضًا .

هل ما يجرى فى الوطن الإيرانى ثورة إسلامية على وجه الحقيقة ؟ أوهى ثورة سياسية تستخدم الإسلام ؟ ! أو هى أطماع طبقة جديدة تريد أن تحكم ؟ !

هل يقصد قادتها وجه الله ؟ أو يقصدون السلطة ؟ ! لا أحد يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة إلا ظنًا وتخمينًا . ولكن المؤكد أن

تحشيد الشعب يتم بشعارات إسلامية واستنفار الألوف للحرب . يحدث بشعارات إسلامية . . واستجابة القلوب لصرخة الجهاد يحدث بفعل لا إله إلا الله فى هذه القلوب ، والقوة التى غيرت مسار الحرب وصمدت للدمار ، وواجهت الموت وقلبت الهزيمة انتصارًا هى فعل لا إله إلا الله فى المقاتلين . . وهذه الظاهرة هى التى أفزعت الغرب وأدهشت المراقبين الأجانب ، وأطلقت العقل الأوربى يبحث فى هذه الظاهرة التى أسموها ظاهرة الخمينى .

هل يعود الإسلام قوة عسكرية متفوقة كما كان حينما هزم الفرس والروم ؟ هل تعود الدولة الإسلامية الموحدة لتصبح خطرًا على أمن أوربا وأمريكا وروسيا ومعها هذه المرة كنوز الطاقة والدولار ، والأعداد البشرية الهائلة ؟

يقول توماس ليمان : إن هذا الفزع ليس له ما يبرره . وإن الدولة الإسلامية الموحدة ستظل دائمًا حلما مستحيلاً يراود المسلمين . . وإنها انتهت بانتهاء خلافة عمر بن الخطاب ، ولم تتكرر ولن تتكرر . وإن المصالح بالنسبة للدول والحكومات العربية أثبتت على مدار التاريخ أنها أقوى من حافز الدين . فلن تقبل مصر ذات الألف مسجد أن يحكمها خليفة فى بغداد باسم الإسلام ، فعندها إسلامها الذى تعتز به ، ولن تقبل وصاية من أحد ، ولن تقبل الحجاز أن يحكمها خليفة

إيرانى باسم الدين ، وهى نفس أرض الدين وكعبته . وكل شعب عربى الآن يكاد ينفرد بتقاليده وعاداته وشخصيته . . وما حدث فى الماضى كان أن بسط الإسلام سلطانه على أرض الكفر والشرك ، ووحد دويلاتها تحت رايته . . أما اليوم فالدول العربية هى دول إسلامية بالفعل ، لها مصالحها ولها استقلالها ، ولا يوجد مبرر لأن يأتيها الإسلام حاكمًا من الخارج . ويقول توماس ليمان : إن ما حدث تاريخيًّا كان العكس ، فقد حاربت الدول الإسلامية بعضها بعضًا بدافع المصلحة بأكثر مما حاربت دول الكفر بدافع نشر الدين ، وكان انقسام الإسلام إلى سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة ، وإلى غيرها من المذاهب سبب تفرق بأكثر مما كان سبب تجمع .

والخليفة المرتقب الذى يراه المسلمون فى الحلم ، والذى تسلم له كل الحكومات مقاليدها ، وتنقاد له كل الشعوب مختارة لابد أن يكون نبيًّا أو رجل معجزات مؤيد بالخوارق التى تعنو لها كل الجباه راغمة ، وقد انتهى زمن النبُّوات كما انتهى زمن المعجزات ، وبالتالى لا يبقى أمل ولا سبيل إلى تحقيق حلم الدولة الإسلامية الموحدة .

ويقول توماس ليمان : إن البعث الإسلامى فى بلد لا يستتبع بالضرورة عداء لأمريكا . والسعودية كمثال هى بلد إسلامى صديق لأمريكا ، وكذلك تركيا الإسلامية هى الأخرى حليفة لأمريكا .

وباكستان الإسلامية مثال ثالث . فلا داعى لهذا الفزع الأمريكى لكل هبَّة إسلامية .

وإذا سلمنا مع توماس ليبمان بالصعوبات التى حالت تاريخيًا – وسوف تحول مستقبلا – دون عودة الإمبراطورية الإسلامية خلف راية الخليفة الواحد ، فإن هناك لونًا آخر ممكنا من ألوان الوحدة ، هو « اتفاق القول » بين مجموع الدول الإسلامية وعزمها الموحد برغم اختلافها وتعدد مصالحها ، وهو اتفاق حدث فى حرب ١٩٧٣ وكان وراء العبور والانتصار . وهذا الاتفاق والاتحاد قد يأتى فى حينه ويؤدى رسالته ويصل إلى أهدافه بأكثر مما تستطيع دولة موحدة تعمل وراء خليفة واحد ، وتأتمر لأساليبه القهرية ، وهو أمل يكفينا كحلم قريب ممكن التحقيق .

ثم من أولى بالفزع ؟ ! هم كدول كبرى نووية ذرية يفزعون منا نحن الدول المتخلفة الضعيفة الفقيرة ، أم نحن منهم . وهل هذا الفزع الغربى والشرقى كان دافعهم طول الوقت على هذا التفتيت المستمر للقوى الإسلامية ؟ ! وهل تقف أهدافهم عند مجرد إحباط فكرة الإمبراطورية الإسلامية والدولة الموحدة أو أنها تمضى لأكثر من ذلك . تمضى إلى الإفقار المستمر لهذه الدول لتعيش تحت مستوى الوعى طول الوقت وطول التاريخ ؟ !

إن ظاهرة الخومينى التى اختلف فيها الخصم والصديق . والتى تضاربت فيها الآراء . هى ظاهرة محيرة أقف أمامها عاجزًا عن القطع برأى . فالإذاعات التى تصلنا من طهران هى ألوان من البروباجندا ينطبق عليها ما ينطبق على البروباجندا الحزبية من مبالغات . وماتبثه الإذاعات الأجنبية وما يتدفق من الوكالات الصحفية الأجنبية . قد يكون كلاما ملفقا تمليه الدعايات والأهواء والمؤمرات الدولية . والحقيقة ضائعة لن يجلوها إلا الزمن والتاريخ . أن ما يجرى فى إيران علامة استفهام .

والخومينى نفسه ذلك الرجل الذى بدأ حياته فى الثمانين هو علامة استفهام أكبر . ولكن الفزع الغربى امام هذه الظاهرة . وتدفق النشرات والكتب والبحوث عن الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله . والمراقبون ورجال المخابرات والصحفيون الذين يتقاطرون أرتالا على العواصم العربية لتقصى ظاهرة الخومينى . وتحسس التيار الإسلامى فى المنطقة هم المؤشر الذى يستوقف النظر . والذى يكشف عن المدى البعيد الذى استهدفت فيه هذه المنطقة للدسائس والمؤامرات بدافع الخوف المستمر من الإسلام .

سطر واحد من أقوال الخومينى فى كتابه الحكومة الإسلامية وقفت أمامه طويلا . هو ما قاله عن إمام الشيعة : « إن من ضروريات

مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب . ولا نبى مرسل . وهو ما يستوجب طاعة الجميع له . بل إن جميع ذرات الكون بجباله وسماواته تخضع لولايته وسيطرته » [ص ٥٢]

ومثل هذه الدعوى التى يقول بها الخومينى ترفع الإمام إلى درجة العصمة المطلقة . وتكاد تجعل منه إلها معبودًا تأتمر بأمره جميع ذرات الكون . وتعلو بمقامه فوق مقام الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين وهو كلام لا يريح .

فمثل هذه الدعوى يمكن أن تكون فتنة أخطر من كل ما أتى بها شياطين الشرق والغرب من فتن . ويمكن أن تؤدى إلى فساد لا يطاوله فساد . وليس بعد ادعاء الألوهية فساد ولا إفساد . فكيف نراجع مثل هذا الإمام لو ظهر علينا ؟ وكيف نسائله وهو أعلى مقاما من النبى المرسل والملك المقرب ؟ وهو الذى تخضع له ذرات الكون وتأتمر بأمره !

ولا يخفف من خطر هذه الدعوى أن الخومينى يعود فيقول : « ولكنى لست ذلك الإمام . ولم أبلغ هذا المقام المحمود بعد » فذلك تواضع لا يغير شيئا من فساد المبدأ . فإن أتباعه يرون فيه تلك الإمامة وينادونه بآية الله روح الله .

ولم يدّع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لنفسه هذا المقام وإنما قال قولة القرآن :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ) [١١ الكهف] .
(قل لا أملك لنفسى ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله) [٤٩ يونس] .
(قل إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا) [٢١ الجن] .
(قل ما كنت بدعًا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) [٩ الأحقاف] .

ولم يقل بأن ذرات الكون تخضع لولايته وتذعن لسيطرته . وهذا هو الفرق بين موقف السنة وموقف الشيعة . فالسنة تقف عند هذه الآيات القرآنية . ولا تزيد ولا تعطى للنبى وخلفائه أكثر مما أعطاهم الله ورسوله .

أما الشيعة فتعطى للإمام قدسية وعصمة وربانية على الأشياء والناس . وتجعله تجسدًا لروح الله . ومثل هذا الفكر يعنى سياسيًا فى التطبيق دكتاتورية مطلقة بكل أخطارها ومساوئها .

هل تكفى هذه السطور من أقوال الخمينى لإدانة الثورة الإيرانية ولإدانة المبدأ الشيعى كسياسة ؟

أمسك عن القول . وأترك التاريخ ليجيب . فالسؤال هذه المرة أكبر من عقلى . وما نعلم من خفايا اللعبة التى تجرى الآن على المسرح أقل بكثير مما لا نعلم .

والله فوق كل ذى علم عليم .

المشكلة والحل

الاثنين ٣٠ أغسطس شاطئ العريش :

هبات النسيم القادم من البحر تأتى ومعها السكن والراحة . . هى الأخرى جاءت بعد مشوار طويل حول نصف الكرة الآخر بين مطبات الهواء الساخن والبارد وبين كتل المياه الساخنة والباردة من الهادى إلى الأطلنطى إلى المتوسط فهى مثلنا فى تقلبنا بين تيارات الفكر بين يسار ويمين وبين شرق وغرب . . فما أشبه إنسان العصر الحائر ببرادة الحديد المبعثرة تشدها أمواج المجال المغناطيسى عن يمين وشمال . . ومثلما ينحاز الإنسان إلى هذا المجال أو ذاك تنحاز الدول وتتصاعد فى أحلاف ويتصاعد معها الموج السياسى وتتصاعد الكتل فى نزاعات وحروب .

الموج المادى رأسماليا كان أو شيوعيا (ولا فرق يذكر بينهما) فكلاهما فكر مادى يقدم وعدا بالرخاء المادى . . وذلك الموج يشد الأغلبية فى شباكه وحبائله .

والموج الديني يشد القلة الباقية إلى المناهج الإلهية والمثل والشرائع الربانية .

وإنسان العصر بين السابح فى هذا الموج أو ذاك مهاجرا إلى أيهما فى اعتدال أو منكبا على وجهه فى تطرف أو ممزقا بين الاثنين فى حيرة .

أمريكا تغريك بالحرية .. وأنت فى أمريكا حر .. تاجر اكسب .. ابتكر اخترع اسرق اقتل .. اقتل حتى نفسك بالمخدرات أو اقتل الرئيس الأمريكى « ثم يفرج عنك بعذر الانحراف العقلى » افعل أى شىء تتصور أن فيه سعادتك ورخاؤك وتلك فلسفة .

وفى روسيا من أجل الرخاء الموعود نفسه يقدمون لك فلسفة أخرى ، يسلبونك فيها هذه الحرية الفردية فى مقابل بطاقة أمن من الدولة وبطاقة تموين وبطاقة كساء شعبي ومجانية تعليم ومجانية علاج .

لا يهم بعد ذلك شكل التعليم وشكل العلاج ونوع الخضر الذى تجده فى الطابور ونوع البدلة التى تجدها فى البطاقة .. والعمال فى بولندة الذين لم يجدوا سوى الشعارات ثاروا ومشوا فى مسيرات يرفعون صورة البابا وصورة العذراء مريم . والشباب الأمريكى الذى وجد الحرية ولم يجد القيم مشى هو الآخر فى مسيرات يطالب بالعودة إلى الشرائع الإلهية .

وفى العالم الثالث ظهر شباب من كل ألوان الطيف بين أقصى اليسار

وأقصى اليمين اجتمع كل بضعة ألوف منهم حول مرشد أو زعيم أو قائد يلتمسون الحل بثورة أو بانقلاب عسكرى أو حركات تحت الأرض وفوق الأرض بين مخدوعين أو مأجورين أو مرتزقة أو شباب مثالى متهور .

والانقلابات فى الدول الأفريقية وفى دول أمريكا اللاتينية . وفى العالم العربى .. هى خير مثال .. وهى انقلابات لا تجرى بمعزل عن قطبى المجال المغناطيسى الأمريكى والروسى ، فهى أحيانا تجرى باتفاقهما .. وأحيانا بفعل الغزو الفكرى لكل منهما وأحيانا بتآمر طرف من وراء طرف وأحيانا كالنبت الشيطانى من تلقاء ذاتها .

وفى إيران ترفع الثورة علما إسلاميا .. ولا يعلم إلا الله ماذا يجرى تحته .

ونحن فى مصر لا نعيش بعيدا عن هذا كله .. وإنما نعيش فى قلب الدوامة نؤثر فيها وتؤثر فينا فمصر ملتقى القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا وملتقى التيارات المتلاطمة بين شرق وغرب . وفى مصر تراث سبعة آلاف عام من التوحيد يعمل هو ذاته كقطب مؤثر مستقل .

ولمصر صراعها الخاص كبلد عربى مع إسرائيل .

وبعد حروب أربعة وبسبب انقسام عربى وخلافات عربية اختارت مصر أن تخطو خطوة سلام .

ولكن ما فعلته إسرائيل فى لبنان وما تعلن عنه وما تباشره من عنف قد يجهض هذه الخطوة وقد يجعل المضى فى السلام مستحيلا .

ولم يسأل العرب أنفسهم وهم فى خلافاتهم وانقسامهم . . ماذا يكون عليه المستقبل . . وإسرائيل توشك أن تصبح قوة ذرية وحيدة فى المنطقة . . وإيران قوة أخرى مهيمنة فعالة تعيد تشكيل الخريطة .

أين نحن من عالم متغير يتشكل بسرعة لا تنتظر خلافاتنا وسلبياتنا .

وفى العالم ثورة علمية الكترونية تتفاقم وتتضاعف بسرعة . . وفى سنوات قليلة سوف تجعل هذه الثورة الأغنياء أغنى والأقوياء أقوى والمتقدمين أكثر تقدما بما لا يقاس بالنسبة لأمثالنا من دول نامية يلق بها التخلف مئات السنين إلى وراء . . فنصبح كالقرود بالنسبة لمجتمعات إنسانية تلهث تقدما . . هذا إذا لم نسارع فنلحق بأسباب هذه الثورة الإلكترونية العلمية . . ونحن إلى الآن لم نفعل .

كل هذه محاذير ونذر لمستقبل وشيك مجهول .

والصراع بين الثلاثى العملاق أمريكا وروسيا والصين . . هو علامة استفهام أخرى سوف تشكل الخريطة فى السنوات القليلة القادمة .

هل نحن مقبلون على عصر ظلمانى يصنعه الطواغيت . . أم على عصر نورانى يحكمه الراشدون وورثة الأنبياء .

إن النذر تتراكم فى الأفق .

وباطن الأرض يفور . .

والليالى حبالى ، سوف تلدن كل عجيبة . فأين نحن من كل هذا . .

وأين انتماؤنا بين المذاهب والنظم والتيارات .

وماذا أعددنا للغد . .

وماهو إسهامنا فيما يجرى .

إن القليل من زاد العلم الذى نحصل عليه فى مدارسنا وجامعاتنا لا يكفى .

وهجرة الشباب لغسيل الأطباق وبيع الصحف فى أوروبا ليس حلا وانتماء شباب الشارع إلى الزمالك أو الأهلى نكتة سخيفة تافهة أن دلت على شىء فعلى الغيبوبة التى نعيش فيها وسط هذا البركان الفوار من الأحداث .

وانفجارات الشباب الحماسية وجريها خلف أى حامل راية دون أعمال فكر ودون تدبر ! . . هو مراهقة سياسية .

واسترخاؤها على المقاهى وتثاؤبها أمام شاشات التليفزيون وانفاقها الساعات فى نوادى الكاسيت والفيديو انتحار بطئ من نوع آخر .

والكثرة التى تتعاطى حشيش الحب تحاول أن تأخذ أجازة بأسلوب آخر مسلى .

والعالم يتغير . . والتاريخ يتحرك بالخطوة السريعة ولا ينتظر المتسكعين على النواصى . . وإن لم يشترك الشباب فى صنع الحياة فهناك آخرون سوف يرغمونه على الحياة التى يصنعونها .

هل يحاول شبابنا أن يعيش عصره . . هذا العصر الذى يحتاج منه إلى احتشاد كامل علما وعملا وفكرا ودينا وخلقا . . وأن يغذى عقله بكل ما يجد من حقائق كما يغذى الميكروكومبيوتر قبل أن يضغط على أزراره ليسأله الخطة والمنهج والطريق .

إن العبء كبير والمسئولية كبيرة ولكن لا مفر من حملها فالتحديات لا تنتظر والتبعات ثقيلة .

وعدت ببصرى إلى شاطىء العريش وإلى البحر الممتد أمامى إلى ما لانهاية وإلى مستوطنات إسرائيل التى دمرتها قبل إخلائها . وإلى يسارى حيث البر العربى يمتد إلى الأطلسى .

هل فكر الشباب العربى كيف جاء هؤلاء اليهود شراذم من كل الدول . . جاؤا إلى هنا ليقيموا المستوطنات ويزرعوا الصحراء بالورد والثمر البندقية فى يد والفأس فى اليد الأخرى .

هؤلاء اليهود الذين زرعوا الفتن وروجوا المخدرات ونشروا بيننا فلسفات الفوضى . . جاءوا يقاتلون ويعملون ويزرعون ويبنون بعقل أوروبى وبإمكانيات أوربية .

هل نواجههم على نفس المستوى علما بعلم ، وحضارة بحضارة . ودهاء بدهاء . وعملا بعمل ، وقتالا بقتال . . أم سوف نمضى نواجههم بالشعارات والخطب والخلافات التى تنتهى لتبدأ ثم تعود فتنتهى لتبدأ .

وهل أدرك الجانب الفلسطينى أن عليه أن يتوحد فيما بين نفسه قبل أن يسأل الأمة العربية أن تتوحد . . وأن تجتمع منظماته على راية واحدة وممثل واحد ورأى واحد وطرف واحد تعطيه التمثيل والشرعية .

وهل أدرك المنادون بالوحدة العربية بين الدول العربية أن الوحدة أصبحت أحيانا مفتقدة حتى فى الفرد العربى الواحد الذى تمزق على نفسه . . وأن الفرد العربى مطالب أولا بأن يجمع أشتات نفسه ويتوحد مع نفسه وفكره .

والمنادون بالحرب مع إسرائيل من دول الصمود والتصدى ، هل يعلمون أنه لا توجد دولة عربية واحدة تنتج طعامها أو تنتج سلاحها . وأن العرب يعيشون على لقمة مستوردة وسلاح مستورد . . والذى يعطى القمح والمدفع والطائرة هو الذى صنع إسرائيل وأقامها وأيدها واعترف بها .

وهل يعلمون أن حوالى النصف من تعداد كل دولة عربية لا يعمل .

وهل يعلمون أنه لا وسيلة إلى قرار حر إلا باقتصاد حر . . وإننا لا يمكن أن نحارب عملا وإنتاجا إلا بعمل وإنتاج .

والمنادون بالإسلام كحل . . بأى فهم فهموا الإسلام .

إن أكثر من رفعوا راية الإسلام كانوا يخفون تحت هذه الراية ما لا يمت بصلة إلى الإسلام بأى سبب من أطماع وأحقاد وأهواء وأغراض شخصية .

والمنادون بالإسلام تفرقوا شيعا وطعن كل واحد فى إسلام الآخر وكفر بعضهم بعضا وشهروا السلاح الذى استوردوه من أمريكا وروسيا ليحاربوا به بعضهم بعضا .

وبعضهم غرقوا فى الجدل حول الشكليات والمظهريات وتنازعوا حول اللحية والسواك والشمروخ والنقاب وتقصير الثوب وراحوا يمضغون القشور ونسوا الجوهر والروح واللباب .

فهل هو كلام جديد أن روح الإسلام ولبه ولبابه هو العلم والعمل ومكارم الأخلاق أم أنه كلام قديم جدا أيام كان المسلم ينتج لقمته بزرع يده ويصنع سيفه ويربى خيله ويدربها بنفسه .

إذن لم الخلاف والمسألة واضحة أم أن هناك ناسا من مصلحتهم التعمية وتشويه الحقائق وإضاعتنا فى مشكلات ثانوية ننسى فيها أنفسنا وننسى موضوعنا .

وإذا استقر فى وجدان الشباب أن الإسلام هو الحل وأنه هو الطريق إلى الوحدة وإلى الجهاد السليم . . فنحن نقول نعم . . بشرط أن يفهم الشباب ما الإسلام وما حقيقته . . وأن لا يجرى وراء كل نافخ بوق من الفرق الكثيرة الضالة التى تحترف الإسلام كلاما وتشوهه عملا وسلوكا .

على كل شاب أن يفتح أذنيه جيدا ويفهم ما يلقى إليه من يمين وشمال من زخرف الكلام وألا يكون مثل أطواف الخشب التى يلقى بها الموج ويأخذها التيار كل مأخذ .

إخوتى . . لقد جاء الوقت لنفيق . . فعجلة الأحداث تجرى بسرعة . . وعما قريب ندخل فى منعطف التاريخ ونحتبس فى عنق الزجاجة إن لم نحسب لكل يوم حسابه .

نعم لا حل إلا حل واحد .

هو العلم والعمل والإنتاج ومكارم الأخلاق التى عودنا عليها الإسلام والوحدة خلف رايته واحترام العقل ونبذ التعصب والنظر إلى كل شىء فى شمول وكلية وتدبر وتفكر . . وإقامة البنيان الذى انهار من أساسه بالاتفاق أولا على هذه اللبنات الأولى الأساسية التى بدونها لا يكون مانبنيه إسلاما . . وإنما هلوسة دينية تساعد أعداءنا فى القضاء علينا أسرع وأسرع .

وقد يطول بذلك المشوار وتزداد التكاليف .

ولكن لا يوجد حل آخر .

ونظرت إلى البحر .

وكان الموج هذه المرة يرتفع عاليا ويتكسر فى صوت هادر على الرمل .

وتساءلت فى رجفة ..

ترى ماذا يحمل لنا الغيب ..

وماذا نحمل له ..

الفهرس